غسان كنفاني

عن الرجال والبنادق

قصص





سلسلة أعمال غسان كنفاني ٩

غسان كنفاني

عن الرجال والبنادق

قصص

سلسلة أعمال غسان كنفاني 9

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

* عن الرجال والبنادق، قصص قصيرة.

* الطبعة الرابعة ١٩٨٧ (الطبعة الثالثة ١٩٨٥، الطبعة الثانية ١٩٨١).

* الناشر: **مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.**

- ص. ب. ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران)، بيروت - لبنان.
هاتف ٨١٠٠٥٥/٦، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا - لبنان.

— **IAR (RAWAFID) Ltd.**

P. O. Box 7047, Nicosia, Cyprus

Tel. (357) 2 - 452670, TLx. 5223 Rawafid- Cy.

* التنفيذ الفني: **دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر.**



غسّان كنفاني

* ولد غسان كنفاني في عكا عام ١٩٣٦، وعاش في يافا واضطر الى النزوح عنها كما نزح آلاف الفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨ تحت ضغط القمع الصهيوني، حيث اقام مع ذويه لفترة قصيرة في جنوبي لبنان، ثم انتقلت العائلة الى دمشق.

* عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني، وبدأ حياته العملية معلما للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق، ثم انتقل الى الكويت عام ١٩٥٦ حيث عمل مدرسا للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية. وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة، كما بدأ انتاجه الادبي في الفترة نفسها.

* انتقل الى بيروت عام ١٩٦٠، حيث عمل محررا ادبيا لجريدة «الحرية» الاسبوعية، ثم اصبح عام ١٩٦٣ رئيسا لتحرير جريدة «المحرر»، كما عمل في «الانوار» و«الحوادث» حتى عام ١٩٦٩ حين اسس صحيفة «الهدف» الاسبوعية وبقي رئيساً لتحريرها حتى استشهاده في ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢.

* يمثل كنفاني نموذجا خاصا للكاتب السياسي والروائي والقاص والناقد، فكان مبدعا في كتاباته كما كان مبدعا في حياته ونضاله واستشهاده. وقد نال عام ١٩٦٦ جائزة «اصدقاء الكتاب في لبنان» لافضل رواية عن روايته «ما تبقى لكم»، كما نال جائزة منظمة

الصحافيين العالمية (I.O.J.) عام **١٩٧٤**، ونال جائزة «**اللوتس**» التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وافريقيا عام **١٩٧٥**.

مؤلفاته:

* موت سرير رقم **١٢** (قصص) **١٩٦١**، * ارض البرتقال الحزين (قصص) **١٩٦٢**، * رجال في الشمس (رواية) **١٩٦٣**، * الباب (مسرحية) **١٩٦٤**، * عالم ليس لنا (قصص) **١٩٦٥**، * ادب المقاومة في فلسطين المحتلة (دراسة) **١٩٦٦**، * ما تبقى لكم (رواية) **١٩٦٦**؛ * القبعة والنبي (مسرحية) **١٩٦٧**، * في الادب الصهيوني (دراسة) **١٩٦٧**، * عن الرجال والبنادق (قصص) **١٩٦٨**، * الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (دراسة) **١٩٦٨**، * ام سعد (رواية) **١٩٦٩**، * عائد الى حيفا (رواية) **١٩٦٩**، * العاشق (رواية غير كاملة) بدأ بكتابتها عام **١٩٦٦**، * الاعمى والاطرش (رواية غير كاملة)، * برقوق نيسان (رواية غير كاملة) **٧١ ـ ٧٢**، * جسر الى الأبد (مسرحية)، **١٩٦٥** * المقاومة ومعضلاتها (دراسة) **١٩٧٠** * ثورة **٣٦ ـ ٣٩** في فلسطين (دراسة)، **١٩٧٢**.

بالاضافة الى مجموعة اخرى من الروايات والدراسات السياسية والفكرية والتاريخية والنقدية التي لم تنشر في كتب. منها: *الشيء الآخر، او «من قتل ليلى الحايك؟» (رواية) نشرت على حلقات اسبوعية عام **١٩٦٦** * اللوتس الاحمر الميت (رواية)، **١٩٦١** * ثم اشرقت آسيا، (كتاب عن رحلة الى الصين) نشر على حلقات اسبوعية عام **١٩٦٥** * ترجمة «صيف ودخان» لتينيسي وليامس **١٩٦٤**.

تمهيـــد

ربما كان هذا الكتاب القصصي ، هو أكثر كتب كنفاني التباساً من حيث الشكل . ففي البداية ، نشعر ونحن نتابع قصة منصور والبندقية وقاسم ، الطبيب الذي يعمل في حيفا ويترك القرية ، أننا أمام رواية ، متقطعة . أي أمام رواية تتألف من مجموعة من المشاهد ـ القصص . غير أن هذا الشكل شبه الروائي ، ينقطع فجأة ، ليتحول الكتاب إلى مجموعة من القصص الصغيرة . ثم تأتي القصة الأخيرة « ملاحظة : أم سعـد تقول : خيمة عن خيمة . . تفرق » . لتعيدنا الى الالتباس ، فهي تشكل الفصل الأول من رواية « أم سعد » ، التي نشرها كنفاني بعد ذلك .

أي نحن أمـام روايتين غـير مكتملتين ، وبعض القصص الصغيرة .

هل يعود هذا الالتباس الشكلي ، الى زمن اصدار الكتاب ، ١٩٦٨ ، حين كانت المقاومة الفلسطينية ، ما تزال في بداياتها ، وحين بدأ كنفاني يكتشف أنه مطالب بأن يكتب تاريخ النضال الفلسطيني . هل يمكن ربط هذا الكتاب بالروايات الثلاث غير المكتملة . أم أن تفسير هذه الظاهرة ، قد يكون أكثر بساطة ، ويمكن اعادته إلى نمط الحياة الممتلئة التي كان يعيشها كنفاني في سباقه مع الموت ؟

أسئلة قد تحيّر النقد العلمي ، لكنها لا تقلل من أهمية هذه

النصوص ودورها . « عن الرجال والبنادق » ، هي التمهيد الذي صاغه كنفاني لرواية « أم سعد » . أي لمحاولته الخروج على الاطار الرمزي الصارم الذي بناه في « رجال في الشمس » و « ما تبقى لكم » . لذلك نلاحظ على المستوى الأسلوبي ؛ امتزاج الأفق الشعبي الذي كان كنفاني يسعى الى كتابته ، بالمحاولة التاريخية ، التي لا تكتب رواية تاريخية بالمعنى التقليدي للكلمة ، بل تبحث في التاريخ النضالي عن لحظات تغني الممارسة الفعلية .

« عن الرجال والبنادق » ، هو محاولات لكتابة مجموعة من السيَر النضالية . لذلك فالبناء القصصي يبدو غير واضح ، ما عدا في قصتين : « زمن الحرب » ، التي نشرت سابقاً بعنوان « زمن الاشتباك » و « الصغير يكتشف أن المفتاح يشبه الفأس » . هنا يعود كنفاني إلى « انضباطيته » القصصية ، ويقدم بناء متكاملاً ، يختلط فيه الرمز بالذاكرة التي تبحث عن نفسها .

القيمة الاساسية لهذا الكتاب تكمن في مسألتين :

١ ـ القيمة التاريخية : حيث نكتشف في كنفاني ، ارادة البحث التي لا تنتهي ، والتي تدفعه الى البحث الجدي عن أساليب جديدة ، بشكل دائم .

٢ ـ القيمة النضالية : فنكتشف مع كنفاني ، كيف جرى تأسيس محاولة جديدة ، في الأدب الفلسطيني ، بل والأدب العربي ، هي محاولة أن تكون الكتابة نبضاً للواقع المتحرك ، وعلامة ثورية .

وبهذين المعنيين ، تشكل « عن الرجال والبنادق » ، محاولة لكتابة أغنية نضالية ، سوف تتأكد مع « أم سعد » ، وسوف نقرأ بذوراً أخرى لها مع « العاشق » .

الناشر

الإهـداء

هذه تسع لوحات ، أردت منها أن أرسم الأفق الذي أشرق فيه الرجال والبنادق والذين - معا - سيرسمـون اللوحة الناقصة في هذه المجموعة .

غ . ك .

المحتويـــات

١ـ مَدخَل

نمت متأخراً جداً، كان كاتب صيني اسمه (سان تسي)، عاش قبل الميلاد بعدة مئات من السنين، قد اجتذبني تماماً وفكك تعبي واصطاد انتباهي (على ان ذلك كله خارج الموضوع الذي سأكتب عنه) وكتب يقول ان الحرب حيلة. ان الانتصار هو ان تتوقع كل شيء وألا تجعل عدوك يتوقع. كتب يقول ان الحرب مفاجأة. كتب يقول ان الحرب سطوة المعنويات. كتب يقول..

ولكن ذلك كله خارج الموضوع.

نمت متأخراً جداً، ودق الهاتف باكراً جداً، كان الصوت على الطرف الآخر منتعشاً تماماً، يقظاً، يكاد يكون مرحاً، فخوراً، ليس في طياته اي شعور بالذنب. قلت لنفسي - وانا نصف نائم - هذا رجل يصحو باكراً. لا شيء يشغله بالليل. كانت الليلة ممطرة وراعدة وعاصفة، ترى ماذا يفعل - في مثل هذه الظروف - الرجال الذين يزحفون تحت صدر العتمة ليبنوا لنا شرفاً نظيفاً غير ملطخ بالوحل؟ كان الليل ماطراً، وهذا الرجل، على الطرف الآخر من الهاتف...

ولكن ذلك كله، ايضاً، خارج الموضوع.

قال لي: «لدي فكرة، سنجمع العاباً للأطفال ونرسلها الى النازحين

في الاردن، الى المخيمات، انت تعلم، هذه ايام الاعياد».

كنت نصف نائم. المخيمات. تلك اللطخات على جبين صباحنا المتعب، الخرق البالية التي ترف مثل رايات هزيمة، المرمية بالمصادفة فوق سهوب الوحل والغبار والشفقة. كنت أعلّم ذات يوم في واحد منها، وكان احد تلاميذي الصغار يدعى درويش. كان يبيع كعكاً بعد الدوام، وكنت اطارده بين الخيام والوحل والصفيح وبرك الوحل لأحمله الى الصف الليلي. كان شعره جعداً قصيراً مبتلاً دائماً، وكان ذكياً جداً، احسن من يكتب موضوع انشاء في الصف. لو كان يجد ما يطعم به نفسه يومذاك لانبثق منه نابغة، كان المخيم كبيراً، وكانوا يسمونه...

ولكن هذا كله، ايضاً، خارج الموضوع.

قال لي الرجل على الطرف الآخر من السلك: «مشروع ممتاز، اليس كذلك؟ ستساعدنا. نريد حملة اخبارية في الصحيفة، انت تعلم». وانا نصف نائم قفزت الى رأسي الجملة المناسبة: «امضى السيد فلان عطلة رأس السنة وهو يجمع العاباً للنازحين، وستقوم نخبة من سيدات المجتمع بتوزيعها في المخيمات» المخيمات موحلة، وفساتين هذا الموسم قصيرة، ولكن الاحذية ذات الاعناق الطويلة بيضاء، وامس مزقت خبراً وصورة: الحسناء فلانة كانت تسهر في الملهى الفلاني، اسقط الشاب الذي يجلس معها كأسه على فستانها فدلقت القنينة على بذلته. قلت: ثمنها ١٠٠ ليرة على الاقل، قلت ان هذا الثمن..

ولكن هذا كله، ايضاً، خارج عن الموضع.

قال لي متابعاً: «سنضعها في علب من الورق المقوى، وسنجد شاحنات تنقلها مجاناً، وسنوزعها هناك مغلقة. ستكون مفاجأة». مفاجأة. الحرب مفاجأة ايضاً. هكذا قال الكاتب الصيني (سان تسي)

الذي عاش قبل الميلاد بـ ٥٠٠ سنة، كنت نصف نائم، غير قادر على كبح الهذيان. احياناً تأتيني هذه النوبات، خصوصاً حين اكون متعباً، واعجز عندها عن تصديق عيني، انظر الى الناس واتساءل: ايمكن ان تكون هذه هي وجوهنا حقاً؟ كيف استطعنا ان ننظفها بهذه السرعة من الوحل الذي طرشه حزيران فوقها؟ اصحيح اننا نبتسم؟ اصحيح..

ولكن هذا، ايضاً خارج الموضوع.

قال لي وسماعة الهاتف تنزلق من يدي:

«سيأخذ كل طفل في صباح العيد علبته المغلقة، وداخلها لعبة مجهولة. حظه.» سقطت السماعة، وحملتني الوسادة الى ما قبل ١٩ عاماً.

عام ١٩٤٩.

قالوا لنا يومئذ: سيوزع الصليب الاحمر عليكم هدايا العيد

كنت طفلاً، امتلك سروالاً قصيراً وقميصاً من الكتان الرمادي، وحذاء مقطعاً دون جوارب. كان اقسى شتاء شهدته المنطقة في عمرها، وحين اخذت امشي ذلك الصباح تجمدت اصابع قدمي وكساها ما يشبه الزجاج الرقيق. جلست على الرصيف واخذت ابكي، وعندئذ جاء رجل وحملني الى دكان قريب. كانوا يشعلون النار في خشب يضعونه في علبة صفيح، وقربوني منها. دفعت قدمي الى اللهب وغطست فيه. ثم اكملت مشواري الى مركز الصليب الاحمر راكضاً، ووقفت مع مئات من الاطفال ننتظر دورنا.

كانت العلب تبدو بعيدة، وكنا نرتجف كحقل من القصب العاري، ننط كي تظل الدماء تجول في عروقنا. وبعد مليون سنة جاء دوري، فناولتني الممرضة النظيفة علبة حمراء مربعة.

عدوت الى «البيت» دون ان افتحها. الآن، بعد **١٩** سنة، لست اذكر على الاطلاق ما كان يوجد في تلك العلبة الحلم، الا شيئاً واحداً، شيئاً واحداً فقط: علبة حساء من مسحوق العدس.

تمسكت بعلبة الحساء بكلتا يدي المحمرتين من البرد، وضممتها الى صدري امام عشرة اطفال هم اخوتي وبعض اقاربي اخذوا ينظرون اليها بعشرين عين مفتوحة على سعتها.

وكان في العلبة ـ بلا ريب ـ لعب اطفال رائعة، ولكنها لم تكن لتؤكل، وقد اهملت، ثم ضاعت. وظلت علبة الحساء معي اسبوعاً، اعطي امي منها كل يوم عبو كأس من الماء كي تطبخه لنا.

لا اذكر شيئاً سوى البرد، والجليد يكبل اصابع قدمي، وعلبة الحساء.

وكان صوت الرجل الذي يصحو باكراً ما يزال يطن في رأسي، ذلك الصباح الرمادي المتعب، حين اخذت الاجراس تدق في فراغ مروع، وكنت اعود من رحلتي القصيرة الى الماضي الذي ما يزال ينبض في رأسي، وكنت..

ولكن هذا كله، ايضاً، خارج الموضوع!

كانون ١ ـ ١٩٦٨

القِسمُ الاول

٢ - الصغير يستعير مرتينة خاله ويشرق إلى صفد

اتكأ بظهره المبتل على صخرة وفرش ساقيه منفرجتين واخذ ينظر الى السماء: كانت غيوم داكنة تتسابق فوق رأسه وقد توهجت اطرافها بضوء الشمس فبدت كأنها تلتهب، وخيم حوله صمت ثقيل: ابداً لم يخطر في باله ان مثل هذا الوعر يمكن ان يكون موجوداً. حتى حين قال له خاله ان الطريق بين مجد الكروم وصفد تستعصي على الماعز لم يصدق، وابتسم بهدوء وهو يمد له كفيه فيتلقى البندقية التركية العتيقة، وحين ضمها الى صدره قال له خاله مرة اخرى:

- الطريق بين مجد الكروم وصفد وعر يستعصي على الماعز، ان ولداً مثلك سوف يموت في الشول قبل ان يقطع نصف المسافة.

ودون أن يلتفت إليه رد، للمرة العاشرة منذ الصباح، على كلمة «ولد» التي لا ينفك خاله يوجهها إليه:

- انا لست ولداً.

- عمرك سبعة عشر عاماً، والبندقية التي تحملها تزن اكثر من نصف وزنك، والطريق طويلة شرسة.

وانتابه الرعب لحظة واحدة فقط، فشد البندقية الى صدره واستدار فواجه خاله من جديد:

ـ اذا كنت خائفاً على بندقيتك فقل ذلك بصراحة.

ـ انا خائف عليك. انت مجنون صغير ولكنني لا اريد ان افشلك، لماذا لا تقف على الطريق وتركب السيارة فتصل الى صفد؟ لماذا، اصلاً، تريد الذهاب الى صفد؟ قلة رجال هناك؟

ولم يبد على خاله انه يريد اجوبة لكل هذه الاسئلة، ففور ان انتهى من الكلام مد يده فربت على كتفه، ووضع حداً للحوار الذي استمر ساعة واكثر من ساعة:

ـ مع السلامة، انتبه دائماً الى ان هذا المدفع الذي تحمله وحش لا امان فيه، انه شيء قديم، ولكنه ما زال صالحاً.

هذا الخال الغريب الذي يطلق اسماء اخرى على الاشياء، يقول له ولد بدل ان يناديه باسمه، ويسمي البندقية العتيقة مدفعاً، يعرف حقيقة الامور اكثر من اي مخلوق آخر على ظهر هذه الارض. فحين دق بابه في ابكر الصبح ورجاه ان يستعير بندقيته لم يتردد لحظة واحدة، ولكنه امضى اكثر من ساعة يحذره فيها من الطريق وضراوة الطريق، وكان تحذيره صحيحاً تماماً، لقد انتصف النهار ولم يزل في منتصف الطريق، ويخشى الآن ان يصل الى صفد مع حلول العتمة، اذا وصل!

مطر ليلة البارحة بلل التراب وغسل صخور هذا الجبل الاجرد، ورغم ذلك فان الجفاف ما زال متبدياً بوضوح، حين شاهدته امه يتسلل من باب البيت مع الفجر، لم تسأله عن وجهته، ولكنها طلبت اليه ان يتدثر بمعطفه ففعل دون مناقشة. أكانت تعرف، يا ترى، خطته التي مضغها وحده ثلاثة أيام.

بعد ربع ساعة فقط مرت سيارة عتيقة قادمة من عكا، فحشر نفسه في زحام ركابها الصامتين المتدثرين بمعاطفهم، ودفع للسائق آخر قرشين

كان يحملهما فدسهما في جيبه دون ان ينظر اليهما، وحين نزل على مفرق نحف لاحقه الركاب بعيونهم الصامتة: كانت الشمس قد بدأت ترسل اشعتها الواهنة حين اخذ يتسلق الطريق الترابي الذي يفصل نحف عن الشارع العام، وكان صقيع الليل الجبلي ما زال يخز عظامه بقسوة.

دق بقبضته الباب الخشبي لدار خاله ابو الحسن. كان يعرف ان خاله قد انتهى من صلاة الفجر وهو في سبيل ان يعود الى فراشه لينام مرة اخرى حسب عادته التي لم يغيرها منذ وعى خاله وبيت خاله. وحين فتح الباب وردت العينان المدهوشتان تحية الصباح بسط حكايته بايجاز، قبل ان يخطو الى الداخل:

ـ الشباب في صفد يحاصرون القلعة، جئت استعير بندقيتك لاذهب الى هناك، هل ستعطينيها؟

ـ ومن اين ستحصل على الفشك؟

ـ اشتريته.

ـ كم فشكة؟

ـ حوالي العشرين.

ـ وبعشرين فشكة تغزو قلعة صفد؟

ـ هل ستعيرني بندقيتك؟ سأعيدها لك بعد يومين.

ـ واذا مت؟

قالها خاله باسماً كأنه لا يصدق الحكاية، ولكنه لم يبتسم ولم يتردد، كان قد اعد جواباً لكل هذه الاسئلة:

ـ اذا مت سيعيدها لك حسام، انه هناك وسأوصيه بذلك.

دار خاله على عقبيه وخطا الى الداخل، وحين غيبه الممر سمع صوته ينادي:

- ادخل ايها الولد، تناول الفطور.

ولكنه لم يدخل، كان قد قرر ذلك منذ البدء، وصاح بدوره:

- هل ستعطيني المرتينة؟

- حلمت بها الليلة؟ لماذا لا تقول يا فتاح يا عليم؟

- اريد ان اعرف، لا اريد ان اضيع وقتاً، اذا كنت لا تريد اعارتي مرتينتك فعلي ان اذهب فوراً الى كسرة، عند ابو مصطفى مرتينة اخرى قد يعيرني اياها.

ومرت لحظات صمت طويلة، ثم اطل خاله مرة اخرى من آخر الممر واخذ ينظر اليه بامعان: كان طويل القامة عجوزاً لم تؤثر السنون بعرض منكبيه، مشمراً عن ساعديه المكسوين بشعر غزير شائب وواضعاً طاقية مطرزة فوق شعره الابيض القصير. مرت لحظات اخرى تبادلا فيها النظر بصمت كأنه الامتحان، وجاء السؤال الذي كان ينتظره منذ البدء:

- هل رويت هذه القصة للعجوز؟

- امي لا تقبل ان تسميها عجوزاً.

وابتسم، الا ان خاله كرر السؤال وهو يقطب حاجبيه معلناً له، بهذه الطريقة، عدم عزمه على المزاح:

- العجوز، هل عرفت خطة ابنها؟

وانتابته سعادة مفاجئة، فقد اكتشف لتوه ان الجد قد بدأ، وان خاله

شرع يدرس التفاصيل . ومعنى ذلك انه ، في نهاية المطاف ، سيحصل على البندقية .

خلع نعليه ودخل ، فوسع له خاله طريقاً في الممر الذي كان يسده بذراعيه ، ولاحقه بعينيه الضيقتين وهو يدخل الى الغرفة المفروشة ببسط الصوف ومساند القش ، وحين جلس هز خاله رأسه بأسى ، وكف عن انتظار الجواب ، وما لبث ان توصل الى القرار :

ـ ام الحسن تغلي الشاي ، لا تقل لها شيئاً ، سأعطيك المدفع .

ـ كنت اعرف ذلك .

ـ انت تستغل طيبة قلب خالك ، انت ولد شقي . . من اين اشتريت الفشك ؟

ـ من مجد الكروم .

ـ كم دفعت ؟

ـ جنيهاً ونصف .

ـ من اين ؟

ـ حلالي ، انت تعرف : قرش فوق قرش .

ـ على اي حال ، الرصاص المسروق يقتل ايضاً .

كانت المرتينة تحت الفراش ، وكان يعرف ذلك تماماً ، فطوال اربع سنوات كان خاله يسمح له كل يوم جمعة تقريبا أن يطلق منها رصاصة أو رصاصتين في الحقل . وكانت ، فيما بعد ، تنظف وتزيت وتدفن تحت الفراش من جديد .

كانت بندقية ثقيلة ، ولكنه حملها باستخفاف ودون أن ينظر اليها ،

وحين فتح له خاله الباب بهدوء ، كي يتسلل قبل أن تراه أم الحسن ، علقها على كتفه ، وبخطوات بطيئة ما لبثت أن تسارعت حتى تحولت إلى هرولة ، اتجه الى الشرق ، وتسلق حواجز الحقول القليلة التي اعترضته ، ثم أخذ يضرب في الوعر .

قال له خاله ان عليه الابتعاد قليلاً عن حقول مستعمرة راما التي ستلاقيه على الطريق، وانه اذا واصل المسير شرقاً مع انحراف طفيف الى الشمال فانه لن يلاقي الا بعض القرى العربية ثم سيجد نفسه في الوديان المحيطة بصفد.

مر من النهار نصفه فشعر بالبندقية تزداد ثقلاً على كتفه ويضرب كعبها فخذه بلا هوادة، فقرر ان يستريح هنيهة، وحين اتكأ بظهره على صخرة تقع الى جانب الطريق الضيق الذي حفرته اقدام الانسان منذ عشرات السنين وهي تختصر الجبال، شعر بعضلات ساقيه تتمزق، ومرة اخرى انتابه رعب مفاجيء، الا ان البندقية كانت هناك، مستريحة فوق فخذيه، مثل شي ء اسطوري يبعث في صدر الانسان اطمئناناً مجهولاً.

- «ذلك افضل، على اي حال، من فقدان المرتينة». قال ذلك بصوت عال ليزيد في اطمئنانه «الطريق المعبد مليء بالدوريات الانكليزية، واذا شاهدوها معي صادروها».

ربت على ذراع البندقية وابتسم بوهن:

- ثم ان القروش ذهبت الى الفشك. . انت تعرفين ذلك.

اوقفها امامه وثبت كعبها بين قدميه ثم عاد فضغطها بكلتا كفيه فغاصت قليلاً في التراب الرطب، ازاح كفيه عنها بحرص ولما لم تقع عقدهما خلف رأسه واتكأ على الصخرة من جديد وانشأ ينظر اليها.

ـ سوف احصل عما قريب على مرتينة خاصة، ستكون لي وحدي، وانت ستعودين الى بيتك تحت فراش الصوف، واذا سمح لك بالخروج فانما لاصطياد العصافير والسناجيب فقط، الثعالب ايضاً، ربما، في حالات نادرة. .

كانت بندقية ذات ماسورة طويلة تنتهي بفوهة فقدت مسمارها، وكان حزامها الجلدي قد انقطع فربط خاله عوضاً عنه حبلاً من الليف بلله الزيت وسودته الايدي المتسخة بالطين سنة بعد اخرى فاكتسب لوناً قاتماً ثقيلاً. كان بيت النار يتسع لفشكة واحدة فقط تدخل اليه من فتحة في الجانب، ولم يكن يدري فيما اذا كانت البندقية في الاصل قد صنعت على هذه الشاكلة، ام ان مرور الزمن قد انتهى بها الى هذه الصورة الغريبة. لا شك ان مكاناً ما قد خصص لوضع مشط يتسع لخمس فشكات او ست، وكان عليك ان تسحب المغلاق مرة الى فوق ومرة الى الوراء كي تسقط فشكة وراء الاخرى في بيت النار، الا ان مثل هذا الشيء لم يعد موجوداً الآن، وربما كان امر اكتشاف الصورة الاصلية لهذه المرتينة قد اضحى من اختصاص خبير متمكن في علم تاريخ السلاح ،لقد عامل خاله البندقية هذه كما كان يعامل اشجار حقله الصغير. يقصقص عروقها، ويسلخ فروعاً منها ليطعم فيها فروعاً اخرى، يرقعها ويشذبها ويملأ نواقصها حتى تعود فتبدو كتلة واحدة من جديد. ترى ماذا فعل بهذه البندقية في ربع القرن الاخير؟ ربما كانت علاقته بها هي التي جعلته يسميها مدفعاً، فقد فقدت في الحقيقة كثيراً من صفات البندقية، ولسبب ما صارت تصدر، حين الاطلاق، صوتاً مدوياً كالرعد.

ـ «ورغم ذلك فأنت مرتينة طيبة، وتصويبك يكاد لا يخطىء . . المهم في الامر هو انك امينة، فأنت لا تخرجين رصاصك الا من مكان

واحد، انني ارجو ذلك، على الاقل».

كان لذراعها لون بني كامد، وبدا كأنه مكون من قطعة واحدة، الا ان ذلك لم يكن صحيحاً، فقد شهد خاله، مرة، يرقع الذراع بقطعة من خشب الزيتون نشرها ونعمها بعناية لا تصدق، ثم دقها الى الذراع ببراعة فائقة: كانت قطعة من الذراع قد انسلخت حين اضطر خاله، ذات يوم، لان يستعمل عقب البندقية في قتل افعى فاجأته في طريق عودته الى الدار، ولقد تحطم يومئذ رأس الافعى وجزء من ذراع البندقية معاً، ولكن ذلك الحادث لم يكن ليستطيع ان يقنع ابا الحسن بأن عمر المرتينة قد انتهى.

- «لو كنت املك بندقية لما استعرتك من خالي ابي الحسن ويجب ان تكوني طيبة جداً معي كي استعيرك مرة اخرى في المستقبل. انه شيء غريب، اليس كذلك؟ اعني ان اذهب من مجد الكروم الى نحف كي استعير مرتينة اقاتل بها في صفد.. ان مرتينة ابو مصطفى في كسرة مرتينة جيدة، لها مشط وحزام وكل ما يلزم المرتينة لتكون سلاحاً جيداً، ولكن ابو مصطفى لن يعيرني مرتينته، ثم ان كسرة ليست على الطريق بين مجد الكروم وصفد، وذلك حري بجعل المسافة اطول..».

وفي اقل من لحظة واحدة كان قد انتصب واقفاً، واختطف البندقية وانشأ يحث خطاه ضارباً في الوادي تجاه الشرق:

- «لعن الله الخيال، لعن الله احلام اليقظة، كما يقول الاستاذ».

وحاول ان يفكر بالاستاذ، الا انه هز رأسه مبعداً الفكرة بعنف، وعلق البندقية على كتفه وشد قبضته على الرصاص في جيب سرواله وبدأ يهرول: كانت الشمس قد صارت فوق رأسه مباشرة، الا انها كانت سجينة غيوم تتكاثف تحتها مثل ندف القطن.

ـ بعشرين فشكة تغزو قلعة صفد!

هتف مرة اخرى بتلك الجملة الساحرة التي قالها خاله، والتي بدأت الآن تلح على ذهنه، وازاح كومة عوسج بكفه وبدأ يتسلق ركاماً من الحجارة اعترضت الطريق وفكر: «لو حمل كل رجل في الجليل عشرين فشكة واتجه الى قلعة صفد لمزقناها في لحظة واحدة» بدأ يهبط كومة الحجارة بحذر وبساقين متصلبتين فيما امسك ذراع البندقية، وراء ظهره، بكفه وابعدها عن جسده ليحتفظ بتوازنه:

« هذا يحتاج الى كثير من الجهد، والى قيادة، كما قال الحاج». وحاول للحظات قليلة ان يتصور معنى هذه الكلمة، قيادة، الا انه لم يفلح، تصور بادىء الامر ان مهمة القائد هي ان يدور على المقاتلين واحداً واحداً ويرشدهم الى ما يتوجب عليهم فعله، الا انه استبعد هذه الصورة: «كلام فارغ، ليس الامر بهذه البساطة». وحين عجز عن تصور مزيد من التفاصيل استبعد الفكرة نهائياً وانصرف الى حساب الساعات التي قضاها في الوعر: «ولا بد ان تكون ست ساعات او سبعاً». وفكر في ان يستريح مرة أخرى، الا انه قرر مواصلة السير.

ابوه وامه سينتظرانه ليتناول الغداء، اليوم يوم جمعة، ووقت الصلاة قد مر منذ اكثر من ساعتين، عادة يتناول الغداء مع والديه يوم الجمعة. وسوف يفتقدانه، ثم يبدأ ابوه الطعام، وسيقول وهو يمضغ اللقمة الاولى:

ـ قلبك على ابنك وقلب ابنك على الحجر... هذا الصغير الشقي..

وستردد امه برهة، حاستها السادسة ستخزها،عفريتها، كما تحب ان تقول، يوشوش في اذنها اخباراً تبعث في نفسها القلق، ولكنها تخفي

ذلك عن زوجها، وتمد يدها ببرود الى الطعام، وسوف يراقبها هو بطرف عينيه، ثم يقول:

ـ «انت تحسبين انه لن يأكل الآن، ها؟ تحسبين انه يتناول طعامه الآن من قفا يده، كما تفعلين، اقسم بعظام رقبة والدي انه يلتهم غداءه في جهنم الحمراء بكلتا يديه وملء حلقه دون ان نخطر على باله لحظة واحدة».

ولن ترد امه، وتواصل الاكل كأن ما قيل ليس موجهاً اليها، هذه هي عادتها حين تكون، في اعماقها، منصرفة الى التفكير بأمر آخر.

على بعد ساعة بالسيارة الى الغرب، تقع عكا، منها الى الجنوب قليلاً تقع حيفا. في شارع الملك فيصل يعيش ابنها الاكبر ويعمل، ففي الغرفة الخارجية من شقة فخمة في الطابق الثاني توجد عيادته، فيما يعيش في الغرفتين الداخليتين وحده، لم يتزوج بعد. في سبيل ان يناديه الناس «يا دكتور» باع ابوه قطعة زيتون، وخصص لكل عام كومة من تنكات الزيت تباع لتصرف على كتب ونظارات الدكتور قاسم.

ورغم سخرية الأب فقد افلح الابن، وعاد من بيروت ذات يوم، وكان اول شيء فعله، حين تلاقى مع ابيه الذي ذهب ليستقبله في عكا، هو ان مد لسانه، على قدر ما يستطيع بلعومه ان يدفع، في وجهه:

ـ اهذا هو ما تعلمت عند الاميركان في بيروت، يا ولد يا قليل الأدب؟

وقال قاسم، الذي اعد الجواب بدقة طوال الطريق:

ـ كلا، تعلمت الطب، انا دكتور الآن، دكتور طويل عريض رغم

انك صرفت السنوات الماضية كلها تقول ان ذلك مستحيل، وتقول انني ولد فاشل سأدرس الف سنة ثم اعود الى المحراث!

ولم يستطع الاب ان يكبت فرحة اجتاحت صدره، فأخذ بذراع ابنه ودفعه الى سيارة فورد عتيقة عربن عليها منذ الصباح لتنقلهما، والحقائب والكتب، الى مجد الكروم، حيث حشت ام قاسم ثلاث دجاجات ورقبة وفوارغ، ولمت العائلة والحمولة وغرّبت الى نصف الطريق تتلقى العائد العزيز.

- يا دكتور قاسم، منذ عشرات السنين تعلمت في القراءة الرشيدة ان.

وقاطعه قاسم ضاحكاً:

- الحمار حمار ولو بين الخيول رُبي! دائماً تقول ذلك حين اقول لك انني سأصير طبيباً. الامر يختلف الآن، الحمير والخيول ستبقى في مجد الكروم ومحسوبك سيفتح عيادة في حيفا.

وبنفس السرعة التي يستطيع الفرح ان يجتاح بها صدر أبي قاسم اجتاح الغضب عروق جبهته:

- حيفا؟ قلة اطباء في حيفا؟

- اين تريدني ان اعمل اذن؟

- في مجد الكروم يا ولد يا عاق.

- مجد الكروم؟ تحسب انني حلاق اداوي الامراض بالعلق؟ ان أتخن رأس في مجد الكروم سينقدني تعريفة، على الاكثر، ماذا؟ اتريدني ان اموت جوعاً؟

واطبق ابو قاسم شفتيه باحكام، انتهى الامر، لحظات الفرح كلها

انتهت، وهو يعرف تماماً انه اذا ما استمر في الحديث فسيهدر بما لن يرضي الولد الذي وصل لتوه من آخر الدنيا. ولوهلة احس بغصة في حلقه، ولكنه لم يشأ ان يظهر لابنه لحظة ضعف واحدة. فأنشأ يحدق من شباك السيارة فتنسحب امام عينيه حقول الزيتون تلتمع اوراقه في الشمس كصفائح صغيرة من الفضة.

- كيف امي؟

- بخير.

- والصغير؟

- في المدرسة، هذا الصغير يحب الحقول.

وانفرج صدره، وعاد اليه الفرح فجأة، وتبدت امامه حقول الزيتون تشع بضوء مقدس:

- الصغير يحب الحقول، حين يعود من المدرسة يغوص في الساقية الى ركبتيه، ان له يدي فلاح حقيقي.. في كثير من الاحيان يتسلل من البيت في الليل وينام تحت الزيتون..

ومرة اخرى جاءه صوت قاسم مقاطعاً.

- انتم تقتلون هذا الولد... تقتلونه والله العظيم! غداً سآخذه معي الى حيفا، وسيعرف كيف يصنع مستقبله كما يشاء.

وفجأة استدار ابو قاسم وامسك ابنه من زنده بقوة:

- انظر الى اليهود، حين يجيء الواحد منهم ينصرف إلى العمل في القرى.. لماذا لا تفتح عيادتك في مجد الكروم؟

الا ان السيارة وقفت، وفي اللحظة نفسها شهد ابو قاسم بوضوح،

بوضوح لن ينساه مدى الحياة، نظرة احتقار عابرة تلتمع في عيني ابنه، نظرة لم تلبث اكثر من لحظة صغيرة بارقة، ولكنه استطاع ان يلتقطها واحس بها تسقط الى صدره كانهيار جبلي راعد، وفي اللحظة التالية علت الزغاريد وانفتح باب السيارة، ونزل قاسم فتلقفته الاذرعة والاثواب المزركشة، ومن داخل السيارة، وهو مسمر في مقعده كالحجر، شهد زوجته تمرغ وجهها الاسمر الباكي على وجه ولدها العائد فتبلله بالدموع ثم تنهمر على ركبتيها وتجهش ببكاء غريب على صدره فيما اخذت تشده اليها بذراعيها المعقودتين وراء ظهره بإحكام، وحولهما كانت الزغاريد تعلن فخارها العميق بالرجل الذي ذهب فلاحاً وعاد طبيباً: يا سنديِ يا ولدي ياكبدي، يا ابن مجد الكروم يا فخرها.. يا عودة الفارس، يا احرسه يا حارس، يا مئة اصبع في عين الحسود يا احميه يا معبود!

وفيما كانت العائلة تزف قاسم الى البيت كان ابو قاسم يسير بعيداً وراء الحشد الصاخب، يلتقط عوداً ويضرب به جانب قنبازه فيصدر صوتاً كالتمزق، ومن مكانه شاهد الصغير يعدو وراء الحشد محاولاً تلمس اخيه الكبير العائد. قصف العود وطواه الى بعضه ثم القاه الى الأرض وبدأ يحث خطاه:

- «بقي الصغير».

٣ ـ الدكتور قاسم يتحدّث لايفا
عَن مَنصُور الذي وَصَل الى صَفد

من مكانه على الكرسي الهزاز في بيت عائلة ايفا، شاهد الدكتور قاسم بيوت حيفا تتكوم على سفح الكرمل ثم تنفرش حقلاً من حجارة حتى الميناء، كلها مكشوفة لفوهة المدفع المثبت على سطح البيت، ولم يتذكر تماماً تفاصيل الخبر الذي قرأه في الصباح عن قتيلين عربيين اصطادتهما رصاصات مدفع بعيد، وعما اذا كان الحادث قد وقع قريباً من هذه المنطقة.

تناول الشاي بهدوء، وحاول ان لا يتكلم كثيراً كي لا يذهب الحديث الى حدود لم يعرف اين تقع، وكي يضيّع الوقت فقط، دون ان ينظر مباشرة الى عيني ايفا او الي عين المدفع التي كانت تطل عليه من فوق، بدأ يفرش شريحة من الخبز المحمص بالزبدة ثم طلاها بكمية كبيرة من المربى واطبق فوقها شريحة محمصة اخرى. وقد حدث الامر كله حين كان على وشك تناول اللقمة الأولى: فحين رفع رأسه لاحت امامه، وراء ضباب ازرق خفيف، قباب عكا ورؤوس ابنيتها، وفي اللحظة ذاتها تذكر مجد الكروم، وبدت في ذهنه بعيدة مغلقة بما يشبه النسيان، لم يكن بحاجة الى ان يناقش الامر بتفاصيله: فقد عرف انه لن يستطيع الهروب من الذكرى التي اخذت تدق في عظام رأسه من الداخل، واحس كما لو ان خطراً رهيباً يحدق به، بحيفا، بعكا، بمجد

الكروم، بأبيه وأمه والصغير، وخيل اليه ان شعر بدنه قد انتصب هلعاً، وكان يعرف تماماً ان لا مناص من الاستسلام للشيء المجهول الذي اكتسحه فجأة، فأعاد الشريحة الى الصحن واستند بظهره الى الكرسي وانشأ يحدق امامه دون ان يرى شيئاً بالذات.

ورغم انه كان يحس بعيني ايفا تدرسانه بامعان، فقد عجز عن تمثيل اي دور، وحين بدأ يفكر بايفا تشابكت الصورة في رأسه تماماً، وضاعت كل معالمها، وكان يرجو من اعماقه لو تكف ايفا عن النظر اليه كما لو انه شيء يستحق المشاهدة الدقيقة ولكنه كان يرتعش خوفاً لمجرد تصوره ان ايفا قد تبدأ بالتحدث اليه.

وفي اللحظة التالية فعلت ذلك ببساطة، وبالضبط حيث كان يخشى ان تبدأ:

ـ يبدو ان الامور اضحت في منتهى التعقيد، ولا بد لنا ذات يوم من ان ننظر مباشرة في عيني بعضنا ونبحث القضية؟

ـ أية قضية؟

فرشت ذراعيها امامها، وبكفها اليمنى اشارت في دورة واسعة الى الافق حيث مرت يدها فوق قباب عكا الباهتة، وفوق تل الفخار الذي بدا مسطحاً الى الشرق من عكا، وقالت بصوت راعش:

ـ القضية التي تفكر بها الآن.

تناول الشريحة ومدها تجاه ايفا حتى كادت تلامس وجهها، وشيئاً فشيئاً بدأ يستعيد اعصابه:

ـ انا افكر بالقضية الصغرى، هذه اللحظة.. اترين هذه الشريحة؟ حين كنت اضع المربى فوق الزبدة تذكرت اخي الصغير. كان يعتقد

دائماً ان وضع المربى فوق الزبدة هو نوع من قلة الذوق، فأنت اما ان تأكل زبدة او تأكل مربى ولا يجوز ان تأكلهما معاً لانك، عند ذاك تكون قد عبرت عن احتقار لكرامة الزبدة او لكرامة المربى. . كان، واعتقد انه ما يزال يعتقد بأن الزبدة نوع من المأكل الذي يحتوي على كل العناصر التي تجعل منه شيئاً قائماً بذاته لا يجوز الاستهانة به. ان الكلمات ذاتها تعوزني، فقد كان قادراً على التعبير عن رأيه ببساطة ولكن بشكل واضح، هذه هي القضية التي كنت افكر بها، وقد تذكرتها تماماً وانا ارتب الشريحة، اعتقد انك تعرفين ذلك، انه شيء يحدث لأي انسان بين الفينة والاخرى.

ـ ولكنك لم تقل لي ابداً ان لك اخاً صغيراً.

ـ انه ليس صغيراً تماما، عمره الآن سبعة عشر عاماً كما اعتقد، ولكننا اصطلحنا على تسميته بالصغير.

ـ لم تقل لي ابداً ان لك اخاً.

ـ لم اقل لك اشياء كثيرة، وانت ايضاً لم تقولي لي اشياء كثيرة، لقد صغرنا عالمنا بأيدينا لنقذف وراء حدوده بكل ما عدانا، وقد كان عالماً من فرط ما صغرناه، قابلاً لان يمتلىء بالسعادة.

ـ ما الذي يفعله اخوك في القرية؟ لماذا لم تحضره الى هنا؟

ـ انه ولد يحب الحقول، هكذا يقول ابوه دائماً، وهو مثل حصان اصيل لا يعيش الا في المروج.

ناولته الشريحة فأخذها ببرود، وكي لا يعقد الامور بدأ يأكلها دون شهية، وكان اخوه منصور في الوعر المحيط بصفد يرش حفنة من الزعتر الجاف في نصف رغيف اسمر شديد الخشونة، ويعيد النصف الآخر الى جيب سرواله الكبير فيسقط فوق الرصاص فيما يواصل عقب البندقية

التركية القديمة ضرب مؤخرة فخذه كلما اضطرته الصخور للقيام بقفزة واسعة.

نقل البندقية الى كتفه الاخرى، كان حبل الليف قد حز فوق قميصه الابيض خطاً داكن السمرة وتحته مباشرة كان يحس كأن جرحاً قد فتح في اعلى كتفه حيث كان الحبل يتحرك كالمنشار حاملاً ثقل البندقية كله، لا شك ان الخال لم يفكر بهذه المعضلة ولو فعل لوجد لها حلاً بشكل او بآخر، ولكنه في واقع الامر لم يكن يحتاج الى ان يعلق البندقية الثقيلة على كتفه مسافة طويلة كان يحملها من وسطها بكفه الكبيرة الخشنة ولم يكن يبتعد بها كثيراً عن الدار، اما في اول عهده بها، حين كانت الثورة تدفع به الى الجبال، فلا شك ان حزامها الجلدي الاصلي كان ما يزال في حالة جيدة.

وفجأة شاهد الطريق على بعد امتار قليلة، وفي لحظات تعرف على مكانه تماماً، فرغم انه لم يأت الى صفد الا مرتين او ثلاث مرات، فانه يستطيع ان يتذكر معالم الطريق الرئيسي اليها. دون ان يطأ الاسفلت حيث الخطى في موازاة الطريق مراقباً بعينين حادتين كل شيء حوله، مصيخاً السمع لكل حركة، محاولاً ان يستوعب كل شيء حوله دفعة واحدة.

وحين صار في السوق ملأت انفه روائح خضار وسلال ومطر مبكر، كان الناس يتحركون دون ان يعيروا انتباهاً لأصوات الرصاص التي تصبغ الجو بتوتر لا يحتمل، وقال لنفسه وهو يحث الخطى: «غريبون اهل المدن، كأن الامر لا يعنيهم» ووسع الطريق لسيارة عتيقة اخذت تكرج بين الناس وتشق طريقها بزمور مبحوح، كانت ملطخة بالطين على كلا جانبيها، وكان زجاجها الامامي محطوماً، وبدت خروق الرصاص في مقدمتها مدروزة درزاً، على خط مستقيم، وفي احد هذه

الخروق ثبت شخص ما علماً جاعلاً عصاه في حجم الخرق تماماً بحيث لم تعد هناك حاجة لربطه بخيط او بشريط معدني، وكان العلم قد خيط بقماش نظيف لامع واخذ يرف، بسبب من قصره رفات سريعة، مصدراً، عبر الضجة التي يحدثها المحرك والزمور والرجال الاربعة في داخل السيارة، حفيفاً مسموعاً.

واجتازته السيارة فجأة: فقد كان سقفها، منذ المنتصف، مقطوعاً كأنما بمنشار، وكان شكلها مضحكاً، وبدا له اشبه ما يكون برجل لا يلبس سروالاً، وفي داخلها كان الرجال قد قلبوا المقعد الخلفي واسندوا ظهره على ظهر المقعد الامامي واخذوا، من هناك، يتفرجون على الناس. وامام اقدامهم كانت قد امتدت مساحة صغيرة هي المجموع الذي تكوّن من المكان الذي كان يشغله المقعد وصندوق السيارة الخلفي الذي نزع غطاؤه حينما نشر السقف المعدني وكانت هذه المساحة مملوءة بصناديق تحتوي خبزاً وخضاراً واباريق ماء.

وحين صارت السيارة امامه اشار احد الرجال الثلاثة اليه بكعب مسدس طويل كان يضعه في حضنه:

ـ ها هو ذا فلاح يريد ان ينقذ صفد. انه يحمل عصا.

كانت السيارة تسير ببطء شديد بين زحام الناس، وضحك الرجلان الآخران. كان احدهما يحمل بندقية فرنسية قصيرة ويصالب صدره بالامشاط فيما اخذ الآخر يعلك شيئاً.

ـ بكم اشتريت هذه العصا؟

ـ عصا تنزل على جنبك.

قالها بهدوء، ولكن بصوت ملتهب. كان قد احس باهانة مريرة له ولبندقيته، ولكنه ظل يحسد الرجل الجالس في الوسط مع بندقيته

الفرنسية القصيرة وامشاط الرصاص التي تملأ صدره، وواصل صاحب المسدس الاشارة اليه بكعب مسدسه، فيما كانت السيارة تبتعد شيئاً فشيئاً، ثم سمع صوته:

- لو كنت رجلاً قد المقام لنسفت رأسك برصاصة واحدة.

رفع البندقية عن كتفه وحملها امام صدره، كانت رصاصة واحدة معدة في بيت النار، ولأول مرة بدت له تلك البندقية العتيقة شيئاً حميماً ودافئاً، وصاح بكل ما في طاقته، ليتيسر للرجل صاحب المسدس ان يسمعه بوضوح:

- لو كنت رجلاً لنزلتَ.

ورغم ذلك فانه لم يكتف بمجرد الكلام، فأخذ يعدو وراء السيارة وقبل ان يوفق الى التشبث بشيء في مؤخرتها كان احد الرجال، ذلك الذي لا يكف عن العلك، قد وقف وانشأ يرتب المفاوضات:

- عيب يا شباب.. عيب..

واتجه اليه، وهو ما يزال يهرول وراء السيارة:

- الاخ من اين؟

- من مجد الكروم.

- وماذا تفعل في صفد مع هذه البندقية؟

- سمعت انكم تحاصرون القلعة فجئت اشترك معكم.

- تحاصر القلعة؟

والتفت الى الرجلين الآخرين اللذين اخذا يضحكان باستغراق، ثم انحنى فرفع صندوقاً وضعه فوق صندوق آخر فوسع مكاناً جديداً.

ـ هيا، تعال معنا، فليس من الكرم في شيء ان نتركك تركض وراء السيارة الى الأبد.

مد له يده فتمسك بها ولما شده قفز واستقر على ارض السيارة الحديدي. وقبل ان يسوي جلسته تماماً دفع له احد الرجال رأس بندورة واخذ يلتهمه، كان جائعاً ومتعباً وغريباً، ولكن قصة القلعة كانت تأكل رأسه.

ـ انتم لا تحاصرون القلعة؟

ـ القلعة مهجورة منذ كان آدم طفلاً.

ـ ماذا تفعلون اذن؟

ـ نناوش حارة اليهود.

ـ والقلعة؟

ـ يقوص الانكليز عليها اذا تحرك فيها فأر، ولكننا نسيطر عليها.

وانتابه شعور مفاجىء بأنه غير ذي نفع، وانه لا يعرف شيئاً، وان مغامرته كلها فكرة هوجاء لا اساس لها. كانت السيارة قد خرجت من الزحام فضاعفت سرعتها واخذت تنط ككرة من المطاط، فوق شارع مملوء بالحفر، وقال الرجل صاحب المسدس:

ـ ابعد فوهة هذه العصا عن وجهي، قد ينطلق الجحيم المختبىء في داخلها اذا حطت ذبابة على الزناد.. انا الذي اعرف هذا النوع من السلاح.

قذف بما تبقى من رأس البندورة الى الطريق واعتدل في جلسته ولكن الرجل صاحب المسدس، مضى شوطاً ابعد:

ـ «لو لم نصادفه لاحتل القلعة بعصاه وطردنا منها!»

فكر قليلاً، لبرهة واحدة، مقتنعاً بأن الرجل صاحب المسدس مخلوق لئيم وان من الواجب تأديبه بطريقة او بأخرى، وبهدوء وضع بندقيته فوق صناديق الخضار وثبت عينيه في وجهه:

ـ هل تباطح؟

ـ الأخ عصبي.

ـ هل تباطح؟

ودرسه الرجل صاحب المسدس بامعان وهو مكوم بتحفز مشبوب على ارض السيارة: كانت تبدو كتفاه تحت القميص مكورتين صلبتين، وكان زنداه عريضين كقطعتي حطب، أما كفاه فقد كانتا من فولاذ مطلي بلون بني. رفع بصره وحدق إلى وجهه: كان فتيا وكانت عيناه سوداوين تغوران قليلا تحت حاجبيه الكثين وتلتمعان كعيني ضبع، وكان ينبعث منهما تيار من العزم لا يناله الوهن.

وببساطة توصل الى قرار، فالتفت الى الاستاذ معروف وخبط بيمناه على فخذه:

ـ مثل هذا الفتى لا يباطح.

ـ اذن اصمت.

واصر الرجل صاحب المسدس، بما يشبه المزاح، ولكن ليس مزاحاً:

ـ انه يأكل رأس الحية، ولكن ذلك يجب ان لا يمنعنا من التعرف اليه، انا رجل واقعي، ولذلك اقول ان مثل هذا الفتى لا يباطح، واعترف لك علناً يا استاذ معروف انه قادر على بطحي في اقل من دقيقة، وذلك شيء لا استطيع ان احبه، ان يأتي فلاح من مجد الكروم

الى بلدتك ويتحداك في وسطها ثم يكون قادراً على ان يبطحك .

وقفت السيارة فجأة، والتفت السائق الذي لم يكن قد اهتم برفاقه طوال الرحلة، كان يلبس سترة زرقاء متسخة وكان قد أطلق لحيته منذ زمن قصير فهي غير طويلة وغير قصيرة وبدت غير مشذبة فأعطت وجهه مظهراً بائساً، فتح باب السيارة مقرقعاً صاخباً وابلغهم، دون ان يلتفت اليهم :

ـ ليس في وسعنا الاستمرار، هنالك رشاش لعين يسد الطريق وانا لا اثق بهذه السيارة، فقد يخطر على بال المحرك ان يستريح ونحن في نصف منطقة الخطر.

قفز الرجل صاحب المسدس فوق الصناديق واخذ يضحك :

ـ دائماً تلقي نفس المحاضرة علينا : الرشاش والمحرك اللعين والطريق، انت لا تصدق اننا نفهم؟ ها؟ انت لا تصدق.

الا ان السائق لم يجب بل اتجه الى مؤخرة السيارة وسحب اكبر الصناديق وثبته فوق كتفه وبدأ، وهو يكاد يلتصق بالجدار ،يصعد الطريق الى فوق.

قال الاستاذ معروف :

ـ عليك ان تحمل صندوقاً يا منصور وتلتحق بنا.

ـ الى اين؟

ـ نوزع الأكل على الرجال، انهم لم يتناولوا شيئاً منذ الصباح.

علق منصور بندقيته، بحبل القنب، على كتفه وحمل صندوقاً كانت تغطيه رؤوس البندورة المخبوصة وحث الخطى وراء الاستاذ معروف.

كان زقاقاً مبلطاً يمتد بين الجدران الصخرية لبيوت واطئة، شبابيكها

الخشبية المشغولة بدقة وحذق مغلقة باحكام، وكان الزقاق يتعرج صاعداً التلة. متسعاً حيناً ضيقاً حتى لا يكاد يتسع لرجلين معاً حيناً آخر، كانت كل حنية تبدو وكأنها نهاية الزقاق، الا ان ذلك كان مجرد خداع، وراء الزقاق، فوقه، فيه، لا احد يدري. كانت اصوات الرصاص تصفر، وكانت طلقات مجهولة تقشط حواف السقوف وتقدح شرراً كلما انزلقت على حجر صخري، وكانت، ثمة، رائحة هي مزيج من الصمت والموت والخوف والبطولة والقلق الذي تعانيه زوجات لا يعرفن اذا كان ازواجهن ما يزالون على قيد الحياة.

لحق منصور بالاستاذ معروف، وكان ابريق من الفخار، منقوش بعناية وذو فوهة معقوفة، يخض فوق صندوقه، وكان بوسعه الاستماع الى لهاث الاستاذ وهو يصعد، بحذائه الاسود الثقيل بلاط الزقاق:

- اين هم؟

- من؟

- اليهود.

- على الاسطحة، ووراء نوافذ حديدية لا يخرقها إلا الرصاص الاهي.

- واينا نحن؟

- سترى الآن... وراء المنعطفات، وامام كل ثقب يتسع لذبابة.

وضع الاستاذ معروف صندوقه وثبت كفيه على خصره، وكان السائق قد انتهى الى آخر الزقاق حيث بدا الفضاء متسعاً بين جدارين فوضع صندوقه وحذا الرجلان، رجل المسدس ورجل البندقية، حذوه، واخذا يطلان من فوق كتفه الى ذلك الفضاء.

قال الاستاذ معروف:

ـ انه يترقب فرصة، اترى هذه الساحة الصغيرة؟ ان رشاشاً لعيناً يحكمها من سطح اعلى بناء في حارة اليهود، لقد قتلوا رجلاً يوم امس، وكادوا يقتلون طفلاً اليوم... وفي الصباح الباكر اصابوا ثلاثة قطط.

ـ قطط؟

ـ نعم، صاحب الرشاش يريد ان يفهمنا ان احداً لن ينجو، وانه يحسن التصويب الى حد يصطاد فيه من على بعد نصف كيلومتر او اكثر، قططاً. اغلب الظن انه يضع على مدفعه منظاراً.

وخبط الاستاذ معروف فوق جيوبه، ثم سحب قلماً قصيراً وقرفص:

ـ تعال اشرح لك.

وقرفص منصور الى جانبه وحاول ان يلحق الخطوط المتعرجة التي اخذ الاستاذ معروف يرسمها، بدقة وبطء، فوق بلاطة ناصعة البياض.

يجيء طريق عكا مُشرِّقاً ثم يصعد الى الشمْال لينصب انصباباً من هناك في صفد، مشكلاً نصف دائرة حول تلة مزروعة بالصخر والزعتر البري، اذا قلنا ان مركز صفد هو القلعة التي تعلو هضبة عالية مهدمة الجوانب عتيقة متعبة فان ذلك يسهل تصور البلد، فالى غرب هذه القلعة تقع حارة الاكراد، منها الى الشرق تمتد حارة اليهود على سفحين، والى جنوبها تقع حارة الوطا، اما السوق فهو رقعة صغيرة تفوح برائحة طازجة ندية تقع بين حارة الوطا وحارة اليهود وحارة القلعة، حيث تتناثر البيوت كمحاولات لاهثة لارتقاء الهضبة التي تتوجها القلعة ذاتها، بحجارتها الثقيلة المقنطرة.

غرب القلعة تنبسط حارة الاكراد ببيوتها الحجرية، المطلية بالكلس، حيث تبدو، اذا ما نظرت اليها من القلعة، حمامة ناصعة البياض ذات جناحين مفروشين فوق بساط من الاخضرار الداكن.

من حجارة اقتلعت في مقالع الجرمق بنيت البيوت المقنطرة ذات القباب، اهالي صفد يسمونه حجراً مزّياً، وهو حجر قادر على الاحتفاظ بروحه الجبلية: وحشياً خشناً صلباً، سنة وراء الاخرى، كأنه ما يزال جزءاً لم يقتلع بعد من جبله، بوسعك دائماً ان تحضر حجارة من الجبال، وان تجعل منها جدراناً لبيوت عالية او واطئة، فقيرة او غنية، ولكن حجارة الجرمق هي الحجارة الوحيدة التي لا تستطيع ان تسلب منها روحها او تعطل انتسابها الى الجبل، حتى اذا وضعتها في جدار مستقيم وانيق، فأنت لا تستطيع ان تمر بها دون ان تحس انك في جوار جبل مغلوب على امره، مشتت ومحكوم، ولكنه ما يزال يحمل حنينه الصارم للوعر، ويفوح برائحة البريّة، كأنه ما زال مغروساً في غابة من الزعتر.

في صفد اربعة آلاف يهودي لم يكونوا فلاحين في اي يوم من الايام، ولكن احداً لم يكترث بذلك، لقد عاشوا في دكاكينهم الصغيرة لفترة طويلة، باعوا الناس أشياءهم، وتبادلوا التحية معهم وتجاذبوا الحديث ووجهت اليهم الدعوات الى الغداء والعشاء، كانوا هناك منذ زمن بعيد ولذلك فهم يتحدثون العربية، ويتسمون بأسماء عربية، ويقرأون كتب وصحفا عربية،وكان كل شيء يبدو منطقياً الى حد اطلق فيه سكان صفد عليهم اسم اليهود العرب، ولم يكن ثمة اي إشكال لولا ان بدأت الدكاكين الكبرى تنبثق في الأرض كأنها تزرع، خلسة، في الليل. قالوا: جاء الاشكناز، واخذوا في جانب من حي اليهود ركناً معزولاً مغلقاً على نفسه، حدث ذلك بصورة لم تلحظ بادىء الامر، الجدود لم يكترثوا بالأمر كثيراً، وها هم ذا الآن يجلسون وراء مكاتبهم الخشبية

في اكبر محلات البلد: اسكندر، هل من صفدي لا يعرف دكاكين اسكندر الذي يبيع الخرضوات؟ ام روشر برونفلت الذي يبيع موادّ غذائية؟ وهناك يوسف بندرلي ايضاً، يختص بالالبان والاجبان، يشتريها من حيث لا يدري احد ويملأ بها دكانه التي لم تشاهد مغلقة حتى في ايام السبت، ووراء طاولة زجاجية عريضة تعامل الناس دائماً مع الخواجة بار في صيدليته ذات الابواب الخشبية، ولا يعرف الكثيرون ايدل مايبرك معرفة شخصية، ولكن كل صفد تعرف انه هو صاحب اوتيل المركز، وانه يدير بصورة شبه مجهولة عدداً من المطاعم والفنادق الصغيرة.

ايدل مايبرك، ايدل.. ايدل.. من الذي كان يظن انه من الهاغاناه؟ وان فنادقه ومطاعمه وبيوته مليئة بالاسلحة؟ الخواجة بار، ذلك الذي اطل على الناس من وراء طاولته الزجاجية بوجه يشبه وجه الدجاجة، من الذي كان يراهن انه رجل عسكري يحضر سلاحاً ويرسم خططاً، بندرلي.. برونفلت.. لقد ارسلوا خصيصاً للمستقبل، كان كل شيء محضراً تماماً، اغلب الظن، وهو لم يفاجىء عرب صفد فقط، بل فاجأ اليهود القدامى فيها ايضاً، وقد قالوا ذلك، قالوه، قالوه، ثم سكتوا.

لقد شاهدت صفد عشرات من الحاخامية يدرجون فوق الازقة المبلطة الى الكنيس عاماً وراء الآخر. لديهم ثلاثة منه في صفد، هل كان هؤلاء الشيوخ ذوو اللحى البيضاء الطويلة واغطية الرأس السوداء المكوّرة، هل كانوا يعرفون؟ هل كانوا؟ أنت لا تستطيع ان تقول شيئاً الآن. الانكليز كانوا يعرفون، هذه حقيقة تستطيع ان تقولها وانت مطمئن: لقد جاءوا بالسلاح، سلاح كثير خفيف متوسط وثقيل فكيف كان الانكليز يكتشفون، عندنا، خراطيش الصيد ولا يكتشفون عندهم

كل تلك الاسلحة؟ وانظر اليهم الآن، انهم يسمحون لهم باطلاق النار، ولكن اذا اطلقنا رصاصة، عندئذ يجي ء المستر برهم رئيس البوليس ورجاله ركضاً بالسيارات وعلى الخيل ليلهبوا مؤخراتنا بالرصاص وبالكرابيج ايضاً، إذا استطاعوا، انهم يسمحون لهم بالتسلق الى القلعة بين الفينة والأخرى، ماذا يفعلون هناك؟ المستر برهم وحده هو الذي يعرف، يركبون مدفعاً؟ يحفرون خندقاً؟ يدفنون رشاشات؟ لا يستطيع احد ان يقول، المستر برهم وحده يعرف، ولكن اذا حاولنا الذهاب الى هناك، لنرى ماذا فعلوا، فسوف نجد انكليزياً مسلحاً وراء كل حجر، وانكليزياً مسلحاً آخر امامه يقولان لك: غوباك!

انه قتال غير شريف، قبل يومين فتح «ايدل مايبرك» وابنه رشاشين على صفد طوال ساعة، من اين؟ من القلعة ذاتها، وكان الانكليز يغطون في نوم عميق على اسرتهم في مركز جبل كنعان وفي دار الحج فؤاد الخولي التي جعلوا منها مركزاً آخر لهم بين حارة الاكراد وحارة اليهود، وفي مركز البوليس في حارة الوطا، وطوال ساعة كاملة من الرش لم يَصْحُ واحد منهم، ولكنهم جميعاً استيقظوا وجاؤوا راكضين حتى قبل ان يرتدوا سراويلهم حين بدأ الشباب يتسلقون الطريق الى القلعة، قتال غير شريف، كأنك تباطح بيديك العاريتين سيارة مصفحة.

كانت كفا الاستاذ معروف عاريتين، ايضاً، وكان قلمه القصير يدور فوق البلاطة مخلفاً خطوطاً متعرجة، مرة فوق مرة حتى استحالت البلاطة الى خطوط رصاصية كثيفة لا بداية لها ولا نهاية، الا ان القلم عاد فرسم، في رقعة ما تزال نظيفة تقع بين الخطوط المتشابكة نقطة مدوّرة واحدة.

- نحن هنا، الآن، بيننا وبين حارة اليهود صف من الانكليز

يتعقبوننا كالكلاب البوليسية، ولذلك نحن لا نقف في امكنة معينة، ذلك ليس من الذكاء في شيء، والساحة التي امامك مكشوفة من اوتيل المركز، اوتيل ايدل مايبرك وابنه، الانكليز مصابون بالعمى، بكل ما يختص باليهود، ولكن عيونهم عشرة عشرة علينا. . . هل تفهم من كل ذلك شيئاً؟ نحن هنا مثل رجل واحد يقاتل مدينة بأكملها وهو متربع على سطح مئذنة، يأتيه الرصاص من كل جنب، كلا هذا المثل غير صحيح بالمرة، دعنا نقل أنها مئذنة مقلوبة، او بئر لعينة محاطة بألف عين. . هل تدرك ذلك؟ ما الذي اتى بك من مجد الكروم؟ قلة رجال في صفد؟

لقد جاءه السؤال فجأة، دون ان يرفع الاستاذ معروف رأسه كأنه كان يتحدث الى رجل آخر ملتصق بالبلاطة حيث كان القلم ما يزال يصدر صريره الحاد وهو يدور فوق نقطة داكنة السواد، تلتمع كأنها من زفت، وقرر ان لا يجيب، فهو نفسه في حقيقة الامر لا يعرف الجواب، ومن جديد التجأ الى عالمه المرتب بهدوء في رأسه، وقرر مرة اخرى ان مثل هذا السؤال لا يجاب عليه، فأنت لا تستطيع ان تسأل مقاتلاً لماذا تقاتل؟ كأنك تسأل رجلاً لماذا انت ذكر.

وانقذه الصمت الذي خيم على حين فجأة فرفع الاستاذ معروف رأسه وسارع الى دس القلم الصغير في جيب قميصه، كانت نسمة من الريح الباردة، القادمة من الثلوج الجبلية حاملة معها الصقيع قد اكتسحت الزقاق فبدت وكأنها هي التي اطفأت اصوات الرصاص، نهض الاستاذ معروف واقفاً وحذا منصور حذوه واخذا ينظران الى نهاية الزقاق، كان الرجال الثلاثة قد غادروا اماكنهم مع صناديقهم وغابوا عن مرمى البصر، ولكن الجو كان ما يزال يعبق برائحة الخطر.

قال الاستاذ معروف وهو يشيل صندوقه ويثبته على كتفه:

- هيا، يبدو ان الطريق امان.

وانحنى منصور ليرفع الصندوق، وفقط حين تمسكت كفاه بطرفه بدا كل شيء، لقد حدث الامر على حين فجأة، اجتاحته دوامة تشبه الحمى اخذت تطن في جبينه، ان مثل هذا الامر حدث معه مرتين او ثلاث مرات فقط في حياته كلها، مرة حين كان وراء المحراث في حقل ابيه وسمع صوت انقصاف معدني انكسرت فيه شفرة المحراث الى شقفتين، ومرة حين مات مهره الابيض بين يديه. ان اكثر الامور خطورة هي وحدها التي تستطيع ان تخلخله على هذه الصورة المحيّرة، كأن قوة مجهولة رفسته، فجأة، على قفاه. لحظة واحدة فقط عرف فيها بصورة لا يتطرق اليها التردد ان شيئاً خطيراً قد حدث له وان قوى الارض والسماء جميعاً لن تستطيع دفعه لحمل الصندوق.

رفع الاستاذ معروف صندوقه من جديد وتركه واقفاً في مكانه، الا ان منصور لم يتحرك، واخذ من مكانه ذاك يراقب الاستاذ معروف وهو يصل الى نهاية الزقاق، يتوقف هنيهة فاتحاً حواسه على اقصاها متحفزاً كأنه على وشك ان يقفز في الهواء، ينقل الصندوق الى كتفه الاخرى، ويفرك بكعب حذائه البلاط استعداداً للحظة الحاسمة، ثم ينطلق فجأة عبر الفضاء المفروش وراء الزقاق.

وفي اللحظة التالية انهار سيل من الرصاص. وكان بوسع منصور ان يشهد حباته الملتهبة تكشط بلاط الساحة في محاذاة خطوات الاستاذ معروف، واخذ قلبه يخفق بشدة، كانت زغاريد الموت تضج في رأسه وكان الاستاذ معروف يركض، قافزاً الى اليمين والى اليسار في خط متعرج مجنون، وحوله، وفوقه، امامه ووراءه فتح المزلاج وتدفقت

اصوات الرصاص مدوية صافرة، جوفاء وكثيفة فيها اخذت الريح القادمة من الجبال تعوي بصوت تعيس مجروح.

كان ثمة برميل مملوء بشي ء ما قائماً وسط الساحة، وكان بينه وبين الاستاذ معروف خطوات ليس غير ولكنها كانت تبدو طويلة ممطوطة لا تنتهي، كان الاستاذ معروف ما زال متمسكاً بصندوقه فوق كتفه بحيث يحجب رأسه عن الرصاص، وزغاريد الموت ما زالت تضج في رأس منصور كأن عشرات من العيون الحزينة آخذة، امام حفرة في التراب، تودع شهيداً آخر. وفي اللحظة التالية وصل الاستاذ معروف الى البرميل والتصق بالارض وراءه تماماً، كأنه مسمار دق بالمطرقة على حين فجأة، ووصل الرصاص معه وقرقع صاخباً حين اصطدم بالبرميل مخلفاً ثلاثة ثقوب في وسطه اخذت المياة تتدفق منها كأنها تنطلق من فوهات اباريق فخار.

وخيم صمت بارد من جديد، الا ان زغاريد الموت كانت ما تزال تملأ جبين منصور، وكان الاستاذ معروف مكوماً وراء البرميل. يحاول ان يدور حول نفسه، وقد فعل ذلك بصعوبة كي لا يبدو اي طرف من اطرافه للعين البعيدة التي ترصده من اعلى عمارة في حارة اليهود، وحين رفع الاستاذ معروف يده مشيراً لمنصور استطاع هذا ان يدرك كل شيء، بالبرميل الذي بدأت مياهه تتسرب من ثلاثة ثقوب لن يصلح ليكون متراساً بعد دقائق قليلة، حين تنفذ كل مياهه، وعلى الاستاذ معروف ان يختار بين ميتتين: إما ان ينطلق من وراء البرميل لتحصده طلقات الرشاش كما حصدت القطط، ذلك الصباح او ان ينتظر وراءه دقائق اخرى، حتى اذا فرغت المياه منه، صار بميسور الرصاص ان يخترق جداريه، وان يصل الى بدنه.

كان واضحاً ان اللعبة راقت للرشاش البعيد، فبعد هنيهة واحدة

اطلقت رصاصة اخرى فحفرت ثقباً رابعاً بدأت المياه تتدفق منه، ودوّر الاستاذ معروف عقبيه محتاراً، وفي اللحظة التالية وصلت رصاصة جديدة فمست سطح البرميل بصفير متطاول محذر، وعلى الطرف الآخر من الساحة اطلت ثلاثة رؤوس غير واضحة المعالم.

خطا منصور الى طرف الزقاق واطل برأسه حذراً متصلباً، كانت العمارة العالية تبدو بين البيوت الواطئة مثل قلعة ذات قاعدة عريضة، وعلى السطح كان سور من اكياس الرمل قد ارتفع فوق الجدار، واستطاع ان يشهد، من مكانه، مربعاً صغيراً من الفراغ وسط سور الاكياس، وخيل اليه ان شيئاً اسود يتحرك وراءه، بل خيل اليه انه شهد المدفع نفسه يلتمع فولاذه على ضوء الشمس الغاربة.

اطمأن الى رصاصته في بيت النار ومدّ فوهة البندقية ببطء وحذر على زاوية الجدار وصوّب بهدوء ودقة، خاله قال له: «لا تهتم بمسمار التصويب اهتم فقط بهدوء اعصابك» وكان يبدو مربع الفراغ في سور الاكياس اطاراً لفوهة بندقيته حين انفتح الرشاش مرة اخرى بغزارة، واخذت الثقوب في البرميل تتكاثر بصورة شيطانية وتتدفق المياه منها متزاحمة متوترة، الا ان ذلك لم يهز اعصابه، وفي اللحظة التالية شد الزناد فقصف رعد وحشي لا يصدق. ثم خيم الصمت.

حشا رصاصة اخرى في بيت النار واستلقى على البلاط المبتل، وفي وسط الساحة كان الاستاذ معروف يتحفز من جديد فيما خيم صمت بارد ليس فيه الا صوت انصباب الماء من ثقوب البرميل فوق بلاط الساحة ، رفع الأستاذ معروف صندوقه فوق كتفه ، وفرك كعبي حذائه الأسود الثقيل وانطلق يعدو ، إلا أن رصاصة واحدة لم تطلق ، وطوال لحظات متوترة لم يسمع إلا قرع خطواته فوق البلاط ، وعلى الطرف الآخر من الساحة ، في بداية الزقاق الآخر ، وسع له الرجال

الثلاثة طريقا ليقذف بنفسه فيه ، فيما استرق منصور نظرة أخرى إلى سور الرمل ، كان يبدو صامتا وغير ذي نفع ، وفي اللحظات التالية تصاغرت أصوات المياه ، ثم كفت ثقوب النصف الأعلى من البرميل عن إطلاق الماء ، وجاءه صوت عال من طرف الساحة :

ـ آه يا سبع يا ابو العصا. . .

الا انه لم يغضب، هذه المرة، بل اخذ يضحك بأعلى صوته وهمدت في رأسه زغاريد الموت مطوية مثل قطعة قماش.

شباط ـ ١٩٦٥

٤ - أبو الحسن يقوّض على سيّارة انكليزيّة

انزلته السيارة على مفرق نحف، واطفأ الرجل صاحب المسدس محركها ونظر اليه بامعان، وكانا في ذلك الفراغ العابق بصهيل الزيتون رجلين من عائلة واحدة، هز الرجل رأسه واشار الى البندقية بين كفي منصور!

- لقد كانت هذه العصا ذات نفع كبير.

ونظر منصور اليها، الا انه لم يستطع ان يقول شيئاً فقد بدت بين كفيه قطعة ميتة من الخشب المدهون، وجاءه الصوت مرة اخرى:

- دعنا نرك مرة اخرى في صفد دون قتال!

ومرة اخرى لم يجد ما يقوله، فيما هدر المحرك من جديد وحل الرجل المكبح فبدأت السيارة تنزلق على المنحدر بليونة، وكانت كما تصورها دائماً، رجلاً لا يلبس سروالاً وحين غابت بين جذوع الزيتون تنشق نفساً عميقاً وبدأ يصعد الطريق الى نحف.

كان خاله في الوعر فوضع البندقية في المطبخ، حيث كانت ام الحسن راكعة امام العجين غارسة فيه قبضتيها السمراوين حتى الزندين، واكتفت حين رأته بالنظر اليه وهي تعض على شفتيها، ووضع منصور اصبعه مستقيماً فوق فمه طالباً منها ان تصمت.

وبهدوء غادر نحف، عبر السلاسل الحجرية التي تفصل حقول الزيتون،هابطاً الطريق الى مجد الكروم حيث وصلها قبل وقت الغداء، ومن بعيد شاهد سيارة اخيه الزرقاء تقف امام الباب، سادة نصف الطريق، الا ان ذلك لم يشوشه.

وامام الباب المفتوح، المفتوح دائماً، فك رباط نعليه وخلعهما وانسل الى الداخل، وحين مر امام باب الديوان شاهد اباه يصلي، وشهده ابوه ايضاً، الا انه خطا متعجلاً الى حيث كانت امه تقف في ساحة الدار الطينية، وانكب على يدها فقبلها مرتين فيما اخذت امه نفساً عميقاً وقبلته على جبينه، وشدته اليها لحظة واحدة ثم دفعته الى الوراء وتراجعت خطوة وحذرته بصوت هامس مبحوح:

ـ ابوك سيذبحك.. اين كنت؟

قال بصوت ثابت، فيه رجاء، ولكنه قوي:

ـ انا بعرضك.

وجاءه الصوت من ورائه في اللحظة التالية عصبياً عالياً:

ـ اين كنت يا كلب؟

ودون ان يلتفت، ابلغه الحقيقة:

ـ في صفد.

ـ في صفد؟ ماذا تفعل في صفد؟

ـ اخذت مرتينة خالي، وانضممت الى الشباب، كانوا يقاتلون.

ـ ومن الذي طلب منك ذلك؟

ـ لا احد، انا الذي قررت.

وصاح ابوه:

- در على عقبيك وتحدث الي وجهاً لوجه، ايها الولد العاق.

واستدار بهدوء واخذ ينظر اليه، مباشرة في العينين الغاضبتين، وتقدم ابو قاسم خطوة، وكان واضحاً انه لا بد من ان يستعمل كفه، وفي اللحظة التالية جاءته الصفعة التي ترقبها فلم يهتز، وحين اعترضت امه الطريق بينه وبين ابيه ازاحها بهدوء من امامه، وصاح ابو قاسم مرة اخرى:

- قل شيئاً.

وامتص منصور لعابه فأحس بطعمه الحلو وحرارته، الا انه لم يرفع يده ليرى ما اذا كان فمه قد بدأ ينزف، وعاد ينظر الى ابيه في العينين مباشرة:

- اذا كنت انت هنا، وقاسم في حيفا، فلا بد ان يذهب واحد ثالث الى صفد.

- تريد ان تبيعني وطنية يا ابن العايبة؟

امتص لعابه مرة اخرى ونظر الى امه واقفة ازاءهما بتحفز، مستعدة لقذف نفسها بينهما اذا اعاد ابو قاسم الكرة.

- انا لا ابيعك وطنية، لقد كنت في صفد.

وتردد ابو قاسم لحظة، فهذا نوع جديد من النزال لم يعتد عليه في السنوات الماضية، وحدق الى ولده بغضب، ريثما يكتشف نقطته الاخرى ودون ان يترك مجالاً لأي تراجع:

- هل اعدت المرتينة الى خالك؟

- صاغ وسليمة.

ـ ولماذا لم تخبرني؟

ـ كنت على عجلة.

وانتظرا، كديكين، لحظات اخرى، الا ان الغضب كان بشكل ما قد تلاشى، وبقيت هناك مظاهره فقط.

ـ اخوك في حيفا غارق مع اليهوديات، انتزعته من هناك انتزاعاً، كلب آخر اكثر عقوقاً منك ايها الشقي.. ثم انت..

وتوقف عن الكلام محيراً برهة اخرى وقاس ولده بعينيه:

ـ اغرب عن وجهي، الى جهنم.

واستدار فيما ابتسم منصور وهو ينظر الى امه، وصفق ابو قاسم باب الديوان بعنف، وقالت الام بصوت خفيض:

ـ انت شقي، على اي حال.

ـ اين الدكتور؟

ـ في القهوة، منذ ان جاء به ابوك من حيفا وهو يذهب الى المقهى في كل صباح، سيكر عائداً بعد ساعة.

كان يحس في اعماقه بأنه غير راض تماماً، رغم ان المشكلة مع ابيه قد انتهت بخير، وكان يعرف بأن عدم رضاه يتعلق بأخيه الدكتور قاسم، غارق مع اليهوديات! ليس من شيء يمكن للمرء ان يستبعده عن قاسم، عن الدكتور قاسم الذي اراد ان يهجر فلاحيته ويتمدين، فكسر الجرة، كما يقولون، غارق مع اليهوديات، يهوديات، يلبسن الملابس القصيرة ويكشفن اكتافهن، رآهن في الكرمل يلبسن السراويل الزرقاء القصيرة ويمشين بذلك الغطاء الذي لا يزيد حجمه عن حجم محرمة مطوية دون استحياء، الارض نفسها لا تطيق النظر اليهن، لا عليك

الآن.. انت ما زلت تستحي من اخيك قاسم ولا تريد ان تقابله، بدل ان يستحي هو من فعلته تستحي انت! اخوك الكبير، كتف يديك امامه ولا تجاوب واحذر ان تجعل صوتك اعلى من صوته رغم انه يذهب مع اليهوديات.

وللحظة فكر ان يترك البيت مرة اخرى كي لا يقابل قاسم وجهاً لوجه، ولم يستطع ان يتصور لحظة واحدة كيف يستطيع ان يضع عينيه في وجهه.

ولكنه، على اي حال، لم يقابل قاسم ذلك اليوم، ليس في المساء ولا في اليوم التالي، وحين ارسله ابوه ليتقصى اخباره عند الظهيرة قال له القهوجي وهو يفرش ذراعه نحو الغرب:

- قال لي ان ابلغكم بأنه عاد الى عيادته في حيفا.

●

وحين عاد ابو الحسن الى داره في نحف كان اول شيء شهده هو المرتينة القديمة متكئة في زاوية الديوان، اتجه اليها وحملها بشيء من الحنين، ولكنه لم يكن حنيناً صافياً تماماً: لقد فحصها بدقة، قلبها بين كفيه بادىء الامر ثم سحب مقبض الابرة المسكورة واطلق الزناد مرتاحاً الى الصوت الذي اصدره، وبعد ذلك فحص ماسورتها وذراعها، وشد حبل الليف كيما يتأكد انه ما زال متيناً، وعندما انهى ذلك كله فقط ابتسم لنفسه برضا، واعاد المرتينة الى مكانها وتوجه الى الباحة الخلفية حيث كانت ام الحسن تنشر غسيلاً ووقف يرقبها.

كانت قد شاخت قبل الاوان، ولكن عزيمتها لم تلن، وعنادها لم يعد اقل شأناً، انها من ذلك النوع من النساء اللواتي يستطعن ان يفعلن كل ما يخطر على بالك، ولذلك فمن الصعب ان تصادفهن وهن نائمات او

جالسات ليلتقطن انفاسهن، انهن في الغالب يخلقن شيئاً يشغلن انفسهن به اذا تعذر الشغل: ام الحسن تصحو قبله، تعد الفطور وتغلي الشاي ثم تخرج فتشتغل في رقعة الارض الصغيرة الملحقة بالدار، وتعود فترتب البيت وتكنسه وتبدأ بطهو الغداء وتغسل وتزور جيرانها وتستمع الى ما لا تعرف وتحكي ما تعرف، وتطرد الكلاب، وتنشر عصير البندورة، وتطعم الدجاجات، وتنزل بالبيض الى الدكان، وتشتري ما تحتاجه ذلك اليوم، واذا ما رأيتها تقف في باحة الدار لحظة تنشف كفيها بمريولها المبرقش فاعلم انها تفكر فيما يتوجب عليها ان تفعل، بعد ذلك، وقد تهتدي في تلك اللحظات الى أفكارٍ شيطانية: كأن تصب الطعام في صحون جديدة كي تعطي نفسها فرصة غسل الصحون القديمة، او ان تخرج من الصندوق العتيق رداء تضيقه او توسعه او ترفو اهتراءه، اما اذا عجزت عن ايجاد اي شيء تفعله فانها تلجأ الى المطبخ وتبدأ مرة اخرى في تجربة قدرتها على صنع الهريسة، الا انها طوال السنوات الماضية لم تستطع ان تنجح، لقد كان ابو الحسن يتناول اللقمة الاولى من هريستها فيغص، ويكشر دون ان يقول شيئاً فيما يبقي اللقمة بين فكيه وهو ينظر اليها غاضباً، ثم يقوم، وكانت هي تتذوقها بحرص، الا انها لم تكن لتعترف بفشلها الا صبيحة اليوم التالي حين تنهض باكراً وتلقي بالهريسة الى الدجاج ورغم ذلك فانها لم تكف عن محاولاتها هذه، وكانت تجد صعوبة بالغة في تجنبها.

قال لها ابو الحسن وهي ماضية في تعليق الغسيل على حبل من السلك:

- كان يجب ان تعلقي ذلك الولد من اذنيه حتى اصل واجلده... الم يقل لك لماذا تأخر؟

- كلا، لم يقل.

ـ على اي حال المدفع ما زال كما هو.

نشفت ام الحسن كفيها بمريولها ثم وضعتهما على خاصرتيها:

ـ كيف تعطي المرتينة لولد مثل منصور؟ لو مات لكان الذنب ذنبك.

ـ حين يموت الانسان فليس ثمة وقت للتكلم عن الذنوب ثم انه ليس صغيراً.

وحدجته من مكانها بنظرة قاسية. احياناً يتخيل، حين تنظر اليه مؤنبة، انها على وشك ان تقفز وتوسعه ضرباً وهو يحمد الله دائماً انه لم يتح لها هذه الفرصة في العشرين سنة الماضية.

ـ اسمعي يا امرأة، انا ذاهب الآن، اذا سأل عني اي انسان قولي له انني ذهبت الى مجد الكروم، او الى عكا، او الى جهنم، فقط قولي لهم انني لست هنا.

وعضت على شفتها السفلى، وكان هو يتوقع منها ان تفعل ذلك فقد فعلته دائماً حين ارادت ان توجه سؤالاً تعرف انه لن يجاب عليه، ودون ان يضيّع الوقت استدار وذهب الى الديوان من جديد. حمل مرتينته وانسل من الباب دون ان يغلقه، كانوا ينتظرونه وراء الدار. فلما وصل ساروا معه دون ان يقولوا شيئاً. وبخطواتهم التي تعرف مواطئها معرفة حميمة ضربوا في حقول الزيتون الى الشرق دون لحظة تردد واحدة، كانوا يعرفون كل حجر تقريباً، وكل شجرة، ليس ذلك فحسب بل كانوا يعرفون تاريخ كل شجرة، ملك من كانت وملك من صارت، وكم تحمل وكم لا تحمل، وماذا سيكون مصيرها هذا الموسم وماذا كان مصيرها في الموسم الماضي صعوداً وراء ساجور بعيد عنها بعض الشيء تجنباً لملاقاة اي انسان، الى ما وراء الرامة حيث انعطفوا في خط يشبه القوس نزلوا بعده وراء الصخور المطلة على المفرق.

كان المساء قد بدأ يهبط كئيباً قاتماً فيما ارتفع جدار من الوهج وراء التلال وفوحت رطوبة مفعمة برائحة تراب مبتل. من مكانهم كانوا يستطيعون بسهولة رؤية الطريق القادم من عكا يتفرع الى طريقين، واحدة تذهب شمالاً الى سحماتا والثانية تصعد شرقاً الى فراضية وصفد. لقد اختاروا اكمة من صخر متراكم كمنوا وراءها واصاخوا السمع. كانوا اربعة في عمر واحد تقريباً، لا يعرفونه بالضبط ولكنه لا يزيد كثيراً عن الاربعين، وكان واحد منهم فقط يبدو عجوزاً حقاً هو ابو العبد، ولذلك كان ابو الحسن يقول له كلما التقت نظراتهما: شد حيلك يا ابو العبد، وكان ابو العبد يبتسم ويهز رأسه دون ان يجيب، كأن الامر لا يحتاج الى جواب.

بين الأربعة كانت المرتينة العتيقة تقف على كعبها بين كفي ابو الحسن كأنها عجوز خامسة، يتدلى حبل الليف من تحت فوهتها فتبدو مترهلة، ولكنها كانت اليفة ودافئة وتبعث على اطمئنان غامض، وقال ابو العبد:

- نرجو ان نتوفق قبل حلول العتمة.

وفكر ابو الحسن ان ابا العبد رجل عجوز حقاً، فهو يتصور ان العتمة خصم من نوع راعب، آه يا ايام زمان حين كان ابو العبد يغيب اسبوعاً في الجبال، يأكل خشباً وزعتراً ولا يعود الا ومعه خمس قبعات انكليزية على الاقل؟ آه يا ايام زمان حين كان الواحد يمشي من الصباح الى المساء فلا تسمع لهاثه.. كان ذلك منذ ١٢ سنة، ذلك عمر طويل ينهك الرجل الفقير ويذوب عظامه، آه يا ابو العبد يا مسكين، اتحسب انك تستطيع ان تدخل في عراك الآن مثل ايام زمان؟ اتحسب ان الذين سيعاركونك هم انفسهم الانكليز الذين عاركتهم قبل ١٢ سنة؟ اتحسب انهم شاخوا مثلما شخت انت؟ آه يا مسكين يا ابو العبد لو تعرف

انهم يحضرون دائماً جيلاً جديداً ويرسلون الشيوخ الى بيوتهم، نحن الذين شخنا فقط.. اما هم...

وجاء هدير مكتوم من بعيد. كهدير قطة، فأسقط ابو الحسن رصاصة في بيت النار واركز ماسورة البندقية على حافة صخرة فيما عقد الرجال الثلاثة ذيول قنابيزهم تحت احزمتهم وتحفزوا دون صوت، وكان الهدير يعلو شيئاً فشيئاً بينما اخذ الوهج المنتصب وراء التلال يغيم ويخيم على الافق صمت جنائزي يوشك ان ينفجر.

ـ طوّل بالك.

قالها ابو العبد، فبدا صوته في ذلك الصمت قوياً وناشفاً، مثل ايام زمان، فيما علا الهدير، وبعد لحظات مشدودة كالوتر ظهرت مقدمة السيّارة قادمة من المنعطف، كانت تسير ببطء، وكان فيها رجلان يجلسان في المقعد الامامي: صوّب ابو الحسن على السائق، وجاءه همس مبحوح من جواره:

ـ توكل يا ابو الحسن، على السوّاق.

وفي اللحظة التالية شد الزناد فقصف الرعد، واستدارت السيارة فجأة متدرجة نحو طرف الطريق واصطدمت بحجارة المرتفع، وقبل ان يحشو ابو الحسن رصاصة اخرى كان الرجال الثلاثة قد قفزّوا فوق الحجارة وصاروا الى جانب السيارة تماماً، لقد فعلوا ذلك بسرعة خارقة حتى انه لم يدر ماذا يتعين عليه ان يفعل، الا انه حزم امره وقفز هو الآخر ليلتحق بهم: كان السائق منكفئاً فوق المقود وكان الآخر يرتجف من الرعب، جروه من ياقته الى خارج السيارة وانتزعوا مسدسه فيما الصق ابو الحسن فوهة البندقية بظهره، لم يكن يعرف الا شتيمة واحدة باللغة الانكليزية (فاكن) فأخذ يرددها برتابة، بين لحظة واخرى، وبانغام

مختلفة، محاولاً ان يعثر على النغمة الحقيقية التي يقولها بها الانكليز انفسهم، الا ان ذلك كان عسيراً تماما.

فتشوا السيارة بدقة وبسرعة، كان ثمة بندقية انكليزية جديدة موضوعة الى جانب السائق، وبضعة امشاط من الفشك، وامام المقعد الخلفي كان صندوق معدني مستطيل محكم الاغلاق لم يكن ثمة وقت لفحصه فحملوه معهم، وتولى ابو العبد محاولة اقناع الجندي بعدم اللحاق بهم، فاستعمل، في سبيل ذلك، يديه وحاجبيه ولغة عربية محطمة فأخذ الجندي يهز رأسه موافقاً وكان الآخران قد حملا الصندوق الثقيل واخذا يعدوان به في الارض الوعرة المزروعة بالزيتون، فيما حشا ابو العبد البندقية الجديدة وصوبها الى الجندي، معلناً بدء الانسحاب.

بعد ان سارا عشر دقائق توقف ابو العبد ووضع يده على كتف ابي الحسن:

ـ أتعرف ؟ يجب أن نعود إلى ذلك الجندي فنضربه ، لقد نسينا أن نفعل ذلك .

ـ ماذا؟

ـ لقد كنت كل عمري اشتهي ان اصفع جندياً انكليزياً على وجهه، ورغم ذلك فقد نسيت ان افعل.

اذار ـ ١٩٦٥

٥ - الصَغير وَأبوهُ وَالمرتينَة يذهبُون إلى قلعَةِ جدّين

لم يجرؤ منصور على الذهاب الى خاله مرة اخرى، ولكنه سمع ان ابا العبد يخبىء في بيته بندقية انكليزية جديدة، فلما ذهب اليه قال له ابنه عبد الله ان والده ترك الدار ولن يعود قبل يومين، ودون ان يضيِّع وقتاً صعد التلال الى ترشيحا فوصلها قبيل الغروب، وكان الحاج عباس يجلس على كرسي صغير امام الباب يلف سيجارة من تبغ خشن داكن كان يفرشه على حضنه ولذلك لم يستطع ان يقف حين شهد منصور وابتدره ضاحكاً:

- عزيز من غير قيام.. خير ان شاء الله؟

قال منصور وهو يقعد قبالته:

- خير، كيف حال العم الحاج عباس؟

ونظر اليه الحاج عباس بعينيه الحادتين اللتين تشبهان عيني نسر عجوز، وكان وجهه الجعد محروقاً بالشمس وصارماً، لقد كان معروفاً في كل القرى المجاورة، ورغم ذلك فان احداً لم يكوّن فكرة عنه، ولم يستطيع اثنان ان يتفقا على رأي واحد حوله: فهو دنيء وضيع وعلى استعداد ليبيع سرواله بقرشين، اذا كانت حساباته تكشف في مثل هذه الصفقة ربح تعريفة واحدة، هكذا يراه بعض الذين يعرفونه، اما

البعض الآخر فيرى فيه رجلاً نبيلاً نظيفاً يعطيك لحم رقبته اذا كنت جائعاً.

ولكن الحاج عباس كان في الاساس يتاجر بالتبغ، وربما كانت هذه هي النقطة التي تجعل الناس يختلفون في النظر اليه، لقد كان محكوماً بأسعار السوق ولذلك فقد كانت عروضه على المزارعين تعلو وتهبط كلما علت الاسعار في حيفا وهبطت، وقد تعلم الحاج عباس درساً في الماضي حين ابلغته شركة قرمان، ذات يوم، بأن اسعار الشراء قد انخفضت بنسبة كبيرة، وكان قد تعاقد مع المزارعين واعطى كلمته ولذلك انتهت به الخسارة في ذلك العام الى ما يشبه الافلاس، وبدءاً من ذلك اليوم بدأ يتعاقد مع المزارعين بصورة اخرى، فهو يحصل على وعد بأخذ المحصول الا انه لا يعطي وعداً بالسعر، ويترك الامر معلقاً بصورة غامضة، وقد يشحن المحصول الى حيفا قبل ان يدفع، وحين يجيء وقت الدفع تجيء المشاكل، ولكنه كان يستطيع دائماً ان ينهي الخلاف لصالحه.

وما لبثت الامور ان ازدادت تعقيداً بالطبع، ووجد انه، اذا ما اراد ان يتابع بنجاح، فعليه ان يحيط نفسه بضمانات. وكانت هذه الفكرة بداية لتوسيع اعماله: فقد لجأ الى اعطاء الديون والسلف، واستطاع ان يتوصل مع شركة (قرمان ديك وسلطي) الى اتفاق يتيح له احتكار شراء المحصول في رقعة معينة من الجليل، تمتد في مسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات مربعة حول ترشيحا، وحين انهى ذلك كله تنفس الصعداء.

كان الحاج عباس سخياً في تقديم القروض لكل من يحتاجها، ولا يعرف احد انه رد محتاجاً دون ان يلبي طلبه، ولكنه لم يكن يتسامح في

التحصيل، وكان الشرط في رأيه اخا الرضا، وكي يكون هذا الشرط واضحاً فقد كان يكتبه ويوقعه ويذيل في اسفله امضاءات الشهود.

نصف المشاكل كانت تحلها المحكمة، والنصف الآخر كان يحله بنفسه، ولكن مهما بلغ الخصام فقد كان الحاج عباس حريصاً على المحافظة على علاقاته الشخصية بالجميع، فهو يزورهم باتصال، ولا يترك احداً يزايد عليه في تنقيط العريس بالأفراح، يبارك بالمواليد الجدد، ويعزي بالموتى، ويقرأ الصحف لمن لا يستطيع ان يقرأ، ويذهب الى عكا ليحضر الطبيب اذا تعسر على اي مريض احضاره.

وكان ذواقة تبغ من الطراز الاول، يستمتع حتى الثمالة بلفافته التي يرتبها بنفسه، واذا اراد ان يذهب في الاكرام الى مداه قدم الى ضيوفه حفنات من التبغ الممتاز ليأخذوها معهم الى بيوتهم.

لف سيجارته باحكام. ثم قضم طرف الورقة وبللها بلسانه والصقها وتأمل اللفافة لحظة وهي مبرومة بعناية في راحة يده الضخمة، وحين اشعلها اغمض عينيه نصف اغماضة، بنوع نادر من التلذذ، وابتلع الدخان ثم تركه يخرج كثيفاً من انفه وفمه، وتأمله منصور بفضول مفكراً بطريقة يدخل فيها الى قلب هذا الرجل المطوق بالحرص والحذر كأنه ملفوف بالاسلاك الشائكة، الا ان الحاج عباس يسر له الامر، كعادته اذا ما شعر بحرج طالب حاجة:

ـ يبدو ان مجد الكروم تحضر شيئاً، في الصباح جاء والدك، وها انت ذا تجيء في المساء، انا في الخدمة على اي حال، قال لي ابوك انك ستتزوج عما قريب، انت تعرف انني على استعداد لأي خدمة... اذا لم نفرح مع الشباب فما نفع حياتنا نحن العجائز؟

وضحك الحاج عباس كعادته كلما تحدث عن الشباب والشيوخ، فقد كان في اعماقه لا يصدق بأنه عجوز، وكان يكن نوعاً من الاستخفاف بشباب اليوم ويعتقد انه اذا باطح اياً منهم قصفه شقفتين كما يقصف عرق التبغ الناشف، الا ان منصور كان قد صدم، وغيّر كل ما في رأسه بغمضة عين، واضحى كل ما يريده الآن هو معرفة السبب الذي جاء بأبيه الى الحاج عباس، فبدأ يطرح اسئلته بصورة مبتورة، كأنها أجوبة:

- لقد اراد ان يستدين مالاً.

- من؟

- ابي.

- كلا، لقد حسبت انا نفسي انه جاء ليستدين مالاً، اول الامر، وانت تعرف، لقد كنت حاضراً، ابو قاسم عزيز عليّ ولكنه لم يرد مالاً، كان يريد ان يستعير المرتينة.

- مرتينتك؟

- اجل، انت تعرف، انها عزيز عليّ، ورغم ذلك فقد اعطيته اياها.

- بكم؟

وضحك الحاج عباس مرة اخرى، فأصدرت حنجرته غرغرة طفولية تضاءلت حتى ذابت، اسعده ان يكون منصور واقعياً ومتفهماً لحقيقة الاشياء. ومضى يشرح له بحماس:

- لقد اتفقنا على كل شيء، وهو الذي وضع الشروط، وانا قبلتها كما هي: يدفع جنيهاً عن كل يوم. كثير؟ كلا بالطبع فثمن المرتينة مئة

جنيه،. وقد كان راضياً وكنت انا كذلك.

ـ واذا ضاعت او عطبت؟

ـ لا تقل لي ان والدك يملك مئة جنيه ليدفع ثمنها، ولكن قد يكون بمقدوره ان يدفع الثمن زيتوناً.

ـ وجعلته يوقع ورقة؟

هو الذي اراد ذلك، الرجال الشرفاء حريصون على حقوق الناس، وهم لا يقبلون الظلم، لقد قلت له انه لا يوجد مكان للاوراق بين الحاج عباس وابو قاسم الا انه اصرّ، ولم اشأ اغضابه.

ونظر في وجه منصور مباشرة وهو يمتص لفافته بتلك الشهية النادرة، وحاول منصور أن يبدو طبيعياً، الا أنه شعر بأنه لم يستطع، وفي اللحظة التالية عرف ان الحاج عباس كشف حقيقة مشاعره، فقد نفخ دخانه واتكأ بكوعيه على ركبتيه وقال بصوت حاسم:

ـ اذا اعتقدت ان ذلك خطأ، انت تعرف، فسأمزق الورقة امامك الآن. انا لم اشأ اغضاب العجوز فتركته يفعل ما يشاء، كل الذي اريده هو ان تعود بندقيتي ويعود هو..

ـ اين ذهب؟

ـ لست ادري، لست ادري، انا لم اسأله، كما تعرف، وهو لم يقل.

واخذ نفساً جديداً ثم عاد فاتكأ بظهره على الحائط، وعاد الى الموضع الاول:

ـ تريد ان تتزوج؟

ـ اجل.

ـ ما الذي تريده مني يا عريس؟

ونظر اليه مرة اخرى محتاراً وكان يبدو مثل كومة من اللحم واللـؤم فوق كرسيه الصغير، ووراءه كانت الشمس تغرب صابغة اطراف الغيوم الداكنة بلون دموي. نظر فوقه هنيهة، كانت كتل سوداء من السحاب تركض باتجاه بعضها، وفي اللحظة التالية قصف رعد ثقيل من بعيد وقال الحاج عباس:

ـ سوف تمطر... ما الذي تريده؟

نهض ونظر اليه من فوق:

ـ لا شيء، جئت اسألك عن ابي فقط، وكنت اعتقد انني سأجده عندك فنعود معاً الى مجد الكروم.

وقف الحاج عباس وحمل كرسيه فبدت اصغر مما هي في الحقيقة:

ـ سوف تمطر، هيا، نم هنا الليلة.

ـ شكراً، لديّ ما افعله.

ودون توقف مضى يعدو عبر التلال الصخرية فيما بدأت الغيوم تزخ بهدوء يشبه الهمس، ولأول مرة في حياته احس بأن رأسه محشو بالطين، وانه غير قادر على استخلاص اي شيء، هناك تعقيدات لا تصدق: بارودة مؤجرة، لماذا؟ وابوه ايضاً! ما الذي اوقعه في براثن الحاج عباس، هذا الشخص المدبب كالدودة، لا تعرف رأسه من ذنبه، ايكون قد عرف؟ كلا! ابوه لا يتدخل بمثل هذه الامور، ثم انه شيخ

عجوز كل ما يهمه هو الموسم الذي مضى والموسم الذي سيأتي، ولكن كيف؟

دون ان يهدأ، مثل عش الزنابير، كان رأسه يطن وهو يهرول على الدرب الضيق المحفور بالاقدام منذ بدء الخليقة، ولم يستطيع ان يخفف من اندفاعاته وهو يدخل الى الدار، كانت امه نائمة الا أنها استيقظت على وقع خطاه المستثارة وهو يحوّم في البيت كعاصفة صغيرة، وحين اطلت من الباب شهدته واقفاً امامها، واكبر مما بدا دائماً، غاضباً لاهثاً مبتلاً بالمطر:

- اين ابي؟

- قال ان هناك عرساً في عكا.

وقبل ان يقول شيئاً هدأ، على حين فجأة، وبدت له امه امرأة مسكينة محطمة لا تعرف شيئاً ولا تحتاج إلا الى حنان كبير تاقت اليه كل عمرها، تراها تعتقد حقاً ان زوجها ذهب الى عكا؟ ويكذب عليها ايضاً! ماذا لو امسكها من كتفيها وهزها كما تهز جرة الحليب، ، تراها تضحي شيئاً آخر؟ ما الفائدة؟

لبس قميصه الأبيض الطويل ومضى الى فراشه، ولكن عينيه لم تغمضا حتى الصباح، وشهد من شباك الغرفة الـواطىء شروقاً دامياً صارخاً، وما لبثت الشمس ان ضاعت وراء غيوم كثيفة السواد، وبهدوء انسل من فراشه ولبس ملابسه وغادر الدار تاركاً الباب مفتوحاً على مصراعيه.

وأمام المقهى كان شكيب يدخن لفافته وقد لبس حذاءه الجلدي الطويل، ورداء كاكيا له جيوب كبيرة، واسند بين ساقيه رشاشه

القصير، وحين شهده قادماً نهض وسحق لفافته وحمل رشاشه من وسطه، كمن اعتاد ان يحمل الرشاش طويلاً، وسأل:

- اين سلاحك؟

- لم اجد شيئاً، كل الأبواب كانت مسدودة.

- لماذا تأتي اذن؟

- لست ادري، قد اتدبر امرى هناك.

وقاسه برهة بعينيه السوداوين القاسيتين ثم خطا امامه دون كلمة. كان شكيب رجلاً غامضاً، صلباً كحائط من بازلت، يعرفه كل اهالي مجد الكروم والقرى المجاورة، ولكنهم لا يعرفونه ايضاً. لقد استطاع شكيب ان يملك سلاحاً دائماً ولكن احداً لم يعرف من اين كان يحصل عليه، حتى في اكثر ايام الانكليز تعسفا في ملاحقة الاسلحة كان بوسع شكيب ان يظل محتفظاً بمسدس او بندقية أو رشاش، ومجد الكروم شهدته ذات يوم، قبل خمس سنوات، يحمل مدفعاً رشاشاً ضخماً من طراز فيكرز، ولما كان من الصعب إخفاؤه فقد فككه الى قطع صغيرة دفنها خارج القرية، وحين عاد اليها بعد خمس سنوات كانت قد تآكلت، وتعذر عليه اعادة تركيبها فباعها الى تجار الخردة.

وكان الانكليز يقبضون عليه فوراً اذا ما نمي اليهم ان جندياً من جنودهم قتل في مكان ما من الجليل، ولذلك اضحى يعرف كل سجون فلسطين، ومعظم ضباط الجيش البريطاني. كان ولوعاً بالسلاح الى حدود الجنون، ولذلك كان على استعداد ليقتل ضابطاً انكليزياً خنقاً بأصابعه اذا كان يتيح له ذلك الحصول على مسدس. لقد سمي لفترة طويلة بالشقي، الا انه لم يكن شقياً في الحقيقة، كان مهذباً وخجولاً

ويعتبر خدمة الآخرين واجبا من واجبات الرجل الحقيقي ، وحين تزوج شهد اهالي مجد الكروم فيه زوجاً فاضلاً ، حريصاً على تأمين حياة لائقة لزوجته وطفلته ، وكان يختفي اياماً متواصلة دون ان يعرف احد اين كان يختفي ، وحين كان يعود كانت مجد الكروم تسمع اخبارا غامضة عن امور خطيرة حدثت في مكان او آخر من الجليل، الا ان الجميع كانوا يلتزمون الصمت .

لم يتحدث شكيب كثيراً في حياته الى اي انسان، الا ان كل رجال مجد الكروم يعرفون انه حصل حتى على ملابسه التحتية من معسكرات الانكليز، وان لديه في مكان ما من بيته، اكثر من بزة عسكرية لضباط انكليز من مختلف الرتب، وقد القي القبض عليه مرة وراء المحراث في حقله خارج مجد الكروم وهو يلبس بزة لضابط انكليزي في رتبة مقدم .

كان يجيد اطلاق الرصاص اجادة لا تصدق، وقادراً على استعمال مختلف انواع الاسلحة بحذق واتقان، وكان معروفاً بصوته الجميل ايضاً، وقد غنى مراراً في اعراس مجد الكروم مواويل عميقة فيها حنين عميق للحب والأرض والسماء .

وبخطواته الثقيلة الواسعة كان يشق طريقاً سريعاً في الوعر، وكان منصور يلحقه بصعوبة دون ان يدري اذا كان مقبولاً ، وقبل ان يكتمل الصبح كانا قد صارا في مشارف جدين، ومن المرتفعات المحيطة بها شاهداها قلعة صلبة قائمة فوق مرتفع مسطح تحيط بها اكواخ خشبية داخل نطاق من اسلاك شائكة كثيفة .

جلس شكيب موسعاً بين ساقيه ، كأنهما قطعتا حطب ضخمتين ، مشيراً بفوهة الرشاش الدقيقة نحو القلعة ، كان يبدو مرتاحاً ومطمئناً وغير مكترث بأيما شي ء ، كما كان يبدو في الصباح وهو جالس في باحة

مجد الكروم، وقال لمنصور بصوته الهادىء الحنون، الذي لا يبدو مطلقاً صوت مثل هذا الرجل:

- لست افهم كثيراً في التاريخ، ولكن هذه القلعة قديمة جداً، وعلى أي حال فنحن لسنا هنا لدراستها، بل لاحتلالها.

ونظر الى منصور مرة اخرى، كأنه لم ينظر اليه قبل الآن، ابتسم:

- رغم انك لا تحمل سلاحاً!.. ولكن لا تهتم كثيراً، الآن حين يجتمع الرجال سنرى، غالباً يكتشف بعضهم في اخر لحظة انهم مرضى، وبالوسع استعمال سلاحهم.

وحدق منصور برهة الى القلعة، فبدت له منيعة ومتراصة كأنها جبل بلا مغاور، وبدا له ان فكرة احتلالها هي ضرب من المزاح.

- قد نكون نحن الوحيدين من تلك المنطقة، الرجال جميعاً قدموا من ترشيحا ويركة والكابري، وربما يكون الشيشكلي ايضاً قد جاء ببعض رجاله... ولكن المهم ليس هنا، المهم ان هذه القلعة محشوة بالاسلحة، واذا ما تيسر لك دخولها فستحتار ماذا يتوجب عليك ان تحمل معك... .وهكذا فان مجيئك لم يكن عبثاً، بوسعك انتنصرف إلى الدعاء اثناء القتال، واذا ما استجابت السماء دعاءك حصلت على سلاح.

وابتسم بايجاز، لنفسه، ثم نهض وبدأ ينزل المنحدر باقدام صلبة ثابتة، وكان الرجال ينتظرون في منتصف الطريق بين جدين وعمقا، وكان مدفعا مورتر جاهزين في المقدمة، وبدت البنادق عتيقة ولكنها صالحة، وحين وصلا كان اول ما شهده منصور وجه ابيه.

كان جالساً فوق التراب في نهاية الحلقة معتمداً كفيه فوق البندقية،

بندقية الحاج عباس بلا شك، يستمع بامعان الى ملاحظات الرجل الملتحي، المطوق بأحزمة الرصاص، والمنتصف في الوسط يشرح مستعيناً بكفيه، خطة موجزة.

لقد كان يتوقع ذلك، كان متأكداً منه في اعماقه، ورغم ذلك فقد واصل استبعاده بنوع من التكذيب على نفسه لانه لم يكن يريده، كان على يقين من انه سيجد والده جالساً هنا، بانتظار القتال، ولكنه تمسك طوال ساعات ممضة بالامل الضئيل في ان لا يجده، وقد حدثت الخطوة التالية ببساطة: رفع ابوه بصره عن الارض وشهده واقفاً في طرف الحلقة الآخر الى جانب شكيب، الا ان وجهه ظل جامداً كأنه ينظر الى انسان لا يعرفه، وحين انتهى الرجل الملتحي من الشرح قام ابو قاسم فاتجه الى ولده ووقف بجانبه دون ان ينظر اليه، وفقط حين بدأ المسير، قال له بصوت هامس:

ـ كان يجب ان لا تأتي، ليس من الحكمة ترك امك وحدها.

ـ هذا ما كنت اريد ان اقوله لك، لماذا لا تعطيني بندقيتك وتعود الى مجد الكروم؟

مدّ ابو قاسم البندقية امام وجه منصور فبدت في الصباح براقة، كأنها خرجت لتوها من المصنع:

ـ ليست بندقيتي، بندقية الحاج عباس، دفعت اجرتها، ورهنتها زيتوناً، ولذلك لن أسلمها لاي انسان، لأي كفين غير هاتين الكفين.

تريث منصور هنيهة، ثم سأل بصوت حاسم:

ـ ولماذا تشترك في الهجوم على جدين؟

ـ لقد بدأت الثورة، هذا هو كل شيء.

ـ كلا، انت تريد الحصول على مرتينة من جدين، تعطيها لي ليلة العرس، كما وعدتني.

ولكن ابو قاسم لم يجب، اطبق شفتيه وغذ الخطى فسبقه ملتحقاً بالرجال الذين كانوا في المقدمة، وحين التفت حوله شهد شكيباً يدندن لنفسه لحناً، ثم امسكه من ذراعه فأحس بقوة كفه وصلابتها:

ـ اسمع يا منصور، هذا الجيل جيل لعين، يجب ان تعرف ذلك منذ البدء، رؤوسهم مثل الصخر، فلا تضيّع وقتك في محاولات لاقناعهم، ليس بالوسع الضحك عليهم، ابوك وابي وكل ذلك الجيل اللعين لا يمكن التعامل معه الا بالخداع.. اتعرف ماذا يتعين عليك أن تفعل الآن؟ حاول أن تحميه فقط.

ـ اتعتقد حقاً اننا نستطيع احتلال القلعة؟

ـ لست اعتقد ذلك في الحقيقة، ولكن الهجوم سيظل مفيداً ومن يدري، فقد تحدث المعجزة.

كانت البيوت الخشبية الواطئة تحوط القلعة من كل جانب، وحولها التفت اسلاك شائكة كثيفة، لقد رابطت فرقة من الرجال على الطريق لقطع نجدات قد تأتي من نهاريا، فيما توزع الرجال على المنحدر بالانتظار.

ومن بعيد شهد منصور شكيباً يزحف نحو الاسلاك، لقد كان يتعين ربطها بالحبال وهزها عن بعد كي تنفجر الالغام المثبتة فيها، الا ان الرصاص انهمر قبل ان يصل شكيب الى الاسلاك، وفي اللحظات التالية التهبت الهضبة بالشرار، ولم يستطع منصور ان يلحق بأبيه، فقد كان الرجال جميعاً يتنقلون بسرعة من مكمن الى آخر، ولم يكن بالوسع

مشاهدة اكثر من كوفياتهم تتماوج كأعلام بيضاء صغيرة بين الصخور واشجار الشوك، وكان الرصاص ينهمر حول شكيب بصورة اعجزته عن الحركة الا انه قبع بالانتظار مطبقاً كفيه فوق رزمة الحبال فيما كان يعلوه سقف من نار غزيرة لا تنقطع. وفي اللحظة التالية خيل لمنصور ان الموقف يمكن ان يستمر على هذه الصورة الى الابد، ان الطرفين يطلقان الرصاص على متاريس من فولاذ وصخر، دون ان يعرفا شيئاً عن بعضهما، لو كان فقط يعرف طبيعة جدين لاستطاع ان يتصور طريقة او اخرى. وفقط حين بدأت قنابل المورتر تنسف البيوت الخشبية واحداً بعد الآخر تضاءلت اصوات الرصاص، وتحرك شكيب خطوة واحدة، ثم انشأ يزحف كأفعى قصيرة فيما تفجرت قنابل المورتر هنا وهناك مسكتة مدفعاً وراء الآخر، وحين وصل شكيب الى الاسلاك كانت اصوات الرصاص المنبعثة من الاكواخ الخشبية قد صمتت تماماً، وقد يسر له ذلك ان يعقد الحبال باحكام وان ينسل بخفة، وفي اللحظات التالية بدأت الاسلاك تهتز بعنف وهي تسحب بالحبال وتفجر الالغام دفعة واحدة مصدرة صوتاً هائلاً قاذفة بعواصف من رمل وصخر الى علو شاهق، وصمتت اصوات البنادق والرشاشات ومدفعية المورتر دفعة واحدة، كأنها بالانتظار.

حين انجلى الدخان بدت الاكواخ الخشبية عاجزة وكسيحة ومفتوحة تماماً امام الرجال الكامنين في الهضبة فانزلق منصور من المؤخرة والتحق بالصف الامامي، لقد مرت دقائق طويلة من الصمت والترقب، ثم شرع الرجال بالزحف، ببطء وحذر بادىء الامر، ثم انتصب رجل وآخر وأنشآ يركضان حاملين بندقيتيهما فوق رأسيهما نحو الاكواخ المهجورة، وكأن ذلك كان ايذاناً ببدء المرحلة الاخرى من الهجوم فغادر الرجال مكامنهم ومضوا ينزلقون فوق الهضبة مصدرين هديراً مكتوماً،

وفقط حين وصلوا الى الاسلاك الممزقة انفتحت عليهم النار من شبابيك القلعة المنيعة فالتصقوا بالارض من جديد.

وطوال ساعة كان من المستحيل التقدم خطوة واحدة، كانت النار غزيرة ومتصلة ولم يكن من المتيسر معرفة مصدرها بدقة ،لقد شرّعت قنابل المورتر تتساقط من جديد حول القلعة المتماسكة، ثم ما لبثت ان صمتت، وقال منصور لنفسه «لقد نفد عتاد المورتر»، وكان ما يزال ملتصقاً بالصخرة حين جاءه شكيب زاحفا، وكان يبدو مغبراً ومتعباً وممزقاً، جلس الى جانبه واحتضن رشاشه واخذ يهز رأسه:

ـ اتدري؟ لم اطلق مشطاً واحداً، كيف نطلق؟

ونظر الى رشاشه كأنه يلومه، ثم لكز منصوراً بكوعه:

ـ هيا بنا، لقد انتهى كل شي ء، وعما قريب سيصل الانكليز فيطوقوننا.

وسأل منصور مذهولاً:

ـ ماذا حدث؟ لا شي ء طبعاً. لقد كان من السهل تدمير اكواخ الخشب ونسف الاسلاك الشائكة، ولا شك انهم كانوا يعرفون ذلك فحفروا خنادق عميقة بين تلك الاكواخ والقلعة، وحين بدأ المورتر بدأ الانسحاب، وكانوا يترصدوننا من القلعة. اننا لم نفعل شيئاً، وبوسع القلعة الصمود الى يومين، ولكن هل تضمن لي عدم حضور الانكليز؟

ـ لقد خسرنا اذن..

ـ انتهى كل شي ء، هيا بنا، لقد كانت غزوة عشائرية لا تعرف رأسها من ذنبها، ولكن سنتعلم.

- وابي؟

- دعه يتدبر امره بنفسه، ان ذلك يريحه اكثر، ليس من واجبك اشعاره بأنك وصي عليه.

بدأ صوت الرصاص يتضاءل شيئاً فشيئاً، الا من طلقات عنيدة كانت تعلن عن نفسها بين الفينة والاخرى، استدار منصور وبدأ يتسلق الهضبة الى جانب شكيب فيما كان الرجال ينسحبون واحداً بعد الآخر وهم يطلقون ما تبقى من عتادهم، وحين وصل منصور الى الطريق جلس بالانتظار فيما مضى شكيب الى سبيله دون ان يتبادلا كلمة وداع واحدة. كان يستشعر مرارة جارحة في حلقه، ولم يستطع قط ان يتخلص من الشعور الذي لازمه منذ الصباح بأنه نسي شيئاً. لقد كان من المضحك حقاً ان يذهب الى المعركة دون سلاح، كأنه ذاهب الى عرس، حتى العرس يتوجب على المرء ان يذهب اليه مسلحاً، اي نوعٍ من القتال هو هذا القتال؟ تحارب صخراً بكفيك، تناطح جداراً برأسك العاري!. اليس من العار ان يظل بلا سلاح؟ ان الرجال يحصلون على سلاحهم بالقوة، لا يطلبون اذناً ولا يذهبون تارة الى نحف وتارة الى كسرة ليستجدوا البندقية استجداء.

رأسمال المرتينة لحظة شجاعة واحدة، ربما جرح من الحربة المثبتة فوقها ايضاً، ولكن من قال ان السماء تمطر بنادق كما امطرت مناً وسلوى؟ لقد استطاع شكيب في السنوات العشر الماضية ان يسطو على مئة قطعة سلاح على الأقل، لم يطلب اذناً من احد، فماذا تراك تنتظر يا سيد منصور، ان تعثر على مرتينة او رشاش امام باب دارك ذات صباح؟ انها الثورة! هكذا يقولون جميعاً، وانت لا تستطيع ان تعرف معنى ذلك الا اذا كنت تعلق على كتفك بندقية تستطيع ان تطلق. فالى متى تنتظر؟

وامتلأت السماء فجأة بدوي راعد، واخذت اصوات الرجال ترتفع من سفح الهضبة، وبين الغيوم الكثيفة كان بالوسع مشاهدة طائرة تلتمع كطبق مستطيل من الفضة، دارت الطائرة دورتين واسعتين فوق الهضبة والقلعة ثم حلقت عالياً من جديد، وقبل ان يشهدها مرة اخرى بدأت القنابل تنفجر فوق سطح الهضبة مثل شريط من الشجر الاسود، والى الشمال كانت المصفحات تطل بأنوفها من فوق طريق الكابري وتبصق نارها على الهضبة.. وجاءه صوت رجل مذعور يصيح من اسفل الوادي:

- جاء الانكليز يا شباب!

ورفرفت الكوفيات البيضاء تفتش عن مكامن، واحتجبت الشمس خلف غيوم داكنة السواد وبدأت السماء تزخ زخاً خفيفاً، لقد احتار الرجال هنيهة، ثم بدأوا يتسلقون الهضبة متجهين الى الجنوب، لقد كان واضحاً أن طريق نهاريا الكابري في الشمال محكوم بالمصفحات الانكليزية التي جاءت لنجدة جدين، ولذلك فان الطريق المفتوح الوحيد كان الى الجنوب، حيث يتعين عليك تسلق الطريق الضيق الى جت. وكانت المدافع تطلق نيرانها على السفح المنتصب للهضبة عبر الوادي.

وكأن المصفحات نفخت نفساً في قلعة جدين فعادت نوافذها تطلق نيرانها الغزيرة فيما بدأت طلائع الرجال تمر بمنصور في طريقها نحو الجنوب، لقد انتظر، بأنفاس لاهثة، وصول أبيه إلا أنه لم يستطع الركون الى ذلك الانتظار الراجف العاجز فبدأ ينزل متصلباً حذراً وحين بلغ نطاق النار استوقفه الرجل الملتحي وهو يحمل رشاشه المدبب ويلتحف بأحزمة الامشاط، كان ملطخاً بالوحل وكان وجهه يتمسح

بالسواد، أمسكه من ذراعه ودفعه الى الوراء بعنف وهو يصيح:

ـ إلى أين أيها المجنون ؟

نفض منصور يده بضراوة، وقبل ان يصحو الرجل من وقع الحركة كان منصور قد امسك ذراع الرشاش بكلتا يديه وأخذ يجذبه اليه بعنف:

ـ اذا كنت خائفاً فأعطني سلاحك.. ان ابي ما يزال هناك.

إلا ان الرجل تمسك برشاشه، وبهدوء قام بحركة سريعة، لم يستطع منصور أن يلحظها أو يلاحقها، فانتزع الرشاش مفقداً منصور توازنه، وصوبه الى صدره مكشراً وجهه الملطخ بالسواد عن ابتسامة ضارية:

ـ لنبحث عنه معاً، إنه من مجد الكروم أليس كذلك؟

هز منصور رأسه موافقاً فيما حمل الرجل رشاشه وانزلق في المقدمة ضارباً حذاءه الضخم، باحكام وصلابـة، في بحيرات الـوحل الصغيرة، لقد تستر ببراعة وراء ركام الصخر، وكانت القنابل قد بدأت تتفجر وراءهما متعقبة الانسحاب خطوة خطوة، وحين دوى صوت رعد وحشي التفت الرجل الى منصور، وكان من المتعذر التعرف بدقة على ملامحه المصطبغة بالوحل والدخان:

ـ انه عجوز صعب بلا شك، لقد كانت خطوطنا الامامية هنا، ومعنى ذلك انه تقدم عليها.. هل انت متأكد انه لم ينسحب؟

ـ كلا.

قالها، وبدأ قلبه ينتفض بعنف، كديك مذبوح، مستشعراً خطراً عاصفاً يحدق به. ابتلع ريقه بصعوبة، واكمل وهو ينظر الى الارض:

ـ كلا، كلا، لم ينسحب، لقد كنت على رأس الطريق.. ولو

انسحب لتعين عليه ان يمر بي.

مسح الرجل جبهته بكمه وسأل:

- أتريد ان تتقدم اكثر؟

- نعم.

وفكر الرجل هنيهة ثم ناوله الرشاش:

- حاول أن تحميني، سأذهب بنفسي وسأعود اليك هنا.. لا تتحرك خطوة واحدة..

كان فولاذ الرشاش مبتلاً فأحس برعشة تسري في ذراعيه حين تلقفه، وأنشأ ينظر اليه وهو يغتسل بماء المطر فيبدو اكثر ضراوة، لقد فقدت اصوات الرصاص الغزيرة معناها الآن وأضحت جزءاً من الرعود والبروق والغيوم الداكنة التي تمد فوق رأسه سقفاً واطئاً من الظلام. ضـمّ الرشاش الى صدره واغمض عينيه متنهداً، برهة واحدة، ثم عاد فمد الفوهة امامه وثنى اصبعه حول الزناد واخذ يحدق مضيقاً عينيه إلى الصخور، وأشجار الشوك تستحم في ماء المطر الغزير.

ومر الزمن ثقيلاً بارداً ينتزع خطواته من بحيرات الوحل العميقة، مكبلاً مربوطاً الى الجبل، غاضباً ولكن عاجزاً أيضاً، يدق أسنانه فوق بعضها فيرجع صداها في صدره المهتز كالنابض من فولاذ ووحل ورعب.

كان منصور ممتلئاً بالتوقع، ينبض معه، الى حد بدا له ان ما يتوقعه سيحدث لا محالة، ولا يمكن الفرار منه، وحين شهد الرجل الملتحي من بعيد شبحاً كثيفاً محنياً يحمل فوق كتفيه شبحاً كثيفاً آخر، تلقى المشهد

بهدوء، كأنه رآه قبل ذلك بساعات طويلة واعتاد عليه.

لقد مكث في مكانه، راكعاً على ركبة واحدة يغتسل بالمطر يحدق الى ابيه محمولاً على كتفي الرجل، وحين اقتربا منه شهد كف ابيه تطبق بإحكام على البندقية من وسطها ويلتف حزامها حول ساعده، وكان الدم يصبغ الرجلين معاً، ويتسرب في ثنيات رداءيهما كأنه هو الآخر يحتمي من المطر، وحين وصلا قربه تماماً قال الرجل الملتحي:

ـ هيا، سوف احصل على بغل اذا ما وصلنا الى الطريق، ومن هناك تأخذ أباك الى جت ثم الى مجد الكروم.. امش ورائي وراقب الطريق خلفنا، لقد تركوا القلعة وينوون اللحاق بنا، على ما اعتقد.

ودون ان يلفظ حرفاً واحداً سار وراء الرجل بهدوء، فيما تمزقت الغيوم وتسربت اشعة الشمس رقعاً صغيرة في المدى وراءهم، لقد بدت الهضبة مهجورة وموحشة، وتوقفت المدافع عن الاطلاق، الا ان اصوات الطلقات كانت ما تزال تنهمر من مختلف الجهات دون وعي، وحين وصلا الى الطريق انزل الرجل ابا قاسم عن كتفيه واسند ظهره الى جذع شجرة كثيفة، كانت ذراع العجوز ملتصقة ببطنه. وفيما كانت كفه الاخرى تتمسك باصرار عند البندقية، مد منصور الرشاش نحو الرجل، وقال بصوت مبحوح:

ـ لا اريد ان انظر اليه.. قل لي، هل هي اصابة خطرة؟

ـ يبدو انها رصاصة في احشائه، اذا لم ينزف كل دمه على الطريق فقد يستطيع الطبيب انقاذه.. هل تعرف طبيباً؟ على اي حال، سأذهب الآن واحضر بغلاً، وعليك ان تصل بسرعة الى مجد الكروم.. لقد سألتك، هل تعرف طبيباً؟

نظر منصور الى والده مطوياً تحت جذع الشجرة، ينزف الدم من بين

اصابع كفه الموحلة وهي تضغط على احشائه، كانت عيناه مغمضتين، وبدت كفه المطبقة على البندقية كفاً ميتة متخشبة.

ـ هل تعرف طبيباً؟

ـ طبيب؟ إن اخي قاسم طبيب، قاسم، اجل.. ولكنه..

ـ ماذا تنتظر اذن؟ اعني احضر بغلاً لهذا العجوز الصعب.

بدأ الانين خفيضاً ممزعاً، ثم اخذ يعلو، لقد اشرقت الشمس تماماً الان وماتت كل الاصوات، فاتخذ الانين في ذلك الصمت المطبق وقعاً فاجعاً فيما كان الدم يتسرب من بين الاصابع المتشنجة بنزيز يكاد يُسمع. وفي ذلك الخلاء المبتل كان منصور يقف عاجزاً وهو يرى الى ابيه يموت رويداً رويداً دون حركة واحدة، الا ذلك النبض العميق الذي كان يرجفه فتبدو عروقه كأسلاك مشدودة تخرج من كفه وتتوزع في بدن البندقية ايضاً، واخيرا انتفضوا جميعاً معاً: الشجرة والرجل والمرتينة، ومن وراء غبش المطر الغاضب، ودموعه، خيل لمنصور انهم ليسوا، معاً، سوى جثة هامدة.

نيسان ـ ١٩٦٥

القِسمُ الثَاني

٦ ـ الصَغـير يَذهبُ إلى المخيَّـم

كان ذلك زمن الحرب. الحرب؟ كلا، الاشتباك ذاته.. الالتحام المتواصل بالعدو لانه اثناء الحرب قد تهب نسمة سلام يلتقط فيها المقاتل انفاسه. راحة. هدنة. اجازة تقهقر. اما في الاشتباك فانه دائماً على بعد طلقة. انت دائماً تمر بأعجوبة بين طلقتين، وهذا ما كان، كما قلت لك، زمن الاشتباك المستمر.

كنت اسكن مع سبعة إخوة كلهم ذكور شديدو المراس، واب لا يحب زوجته ربما لانها انجبت له زمن الاشتباك ثمانية اطفال. وكانت عمتنا وزوجها واولادها الخمسة يسكنون معنا ايضاً، وجدنا العجوز الذي كان اذا ما عثر على خمسة قروش على الطاولة او في جيب احد السراويل الكثيرة المعلقة مضى دون تردد واشترى جريدة، ولم يكن يعرف، كما تعلم، القراءة، وهكذا كان مضطراً للاعتراف دائماً بما اقترف كي يقرأ أحدنا على مسمعيه الثقيلين آخر الأخبار.

في ذلك الزمن ـ دعني اولاً اقول لك انه لم يكن زمن اشتباك بالمعنى الذي يخيل اليك، كلا لم تكن ثمة حرب حقيقية. لم تكن ثمة اي حرب على الاطلاق. كل ما في الامر اننا كنا ثمانية عشر شخصاً في بيت واحد من جميع الاجيال التي يمكن ان تتوفر في وقت واحد. لم يكن اي واحد منا قد نجح بعد في الحصول على عمل، وكان الجوع ـ الذي تسمع عنه

ـ همنا اليومي. ذلك اسميه زمن الاشتباك. انت تعلم. لا فرق على الاطلاق. كنا نقاتل من اجل الاكل، ثم نتقاتل لنوزعه فيما بيننا، ثم نتقاتل بعد ذلك. ثم في اية لحظة سكون يخرج جدي جريدته المطوية باعتناء من بين ملابسه ناظراً الى الجميع بعينيه الصغيرتين المتحفزتين، معنى ذلك ان خمسة قروش قد سرقت من جيب ما ـ اذا كان فيه هناك خمسة قروش ـ او من مكان ما. وان شجاراً سيقع. ويظل جدي متمسكاً بالجريدة وهو يتصدى للاصوات بسكون الشيخ الذي عاش وقتاً كافياً للاستماع الى كل انواع الضجيج والشجار دون ان يرى فيها ما يستحق الجواب او الاهتمام.. وحين تهدأ الاصوات يميل اقرب الصبيان اليه (ذلك انه لم يكن يثق بالبنات) ويدفع له الصحيفة وهو يمسك بطرفها، كي لا تخطف.

وكنت مع عصام في العاشرة ـ كان اضخم مني قليلاً كما هو الآن... وكان يعتبر نفسه زعيم اخوته ابناء عمتي ـ كما كنت اعتبر نفسي زعيم اخوتي.. وبعد محاولات عديدة استطاع والدي وزوج عمتي ان يجدا لنا مهنة يومية: نحمل السلة الكبيرة معاً ونسير حوالي ساعة وربع حتى نصل الى سوق الخضار بعد العصر بقليل. في ذلك الوقت انت لا تعرف كيف يكون سوق الخضار: تكون الدكاكين قد بدأت باغلاق أبوابها وآخر الشاحنات التي تعبأ بما تبقى تستعدلمغادرة ذلك الشارع المزحوم. وكانت مهمتنا ـ عصام وأنا ـ هينة وصعبة في آن واحد. فقد كان يتعين علينا أن نجد ما نُعبىء به سلتنا: أمام الدكاكين. وراء السيارات. وفوق المفارش أيضاً إذا كان المعنيّ في قيلولة أو داخل حانوته.

اقول لك انه كان زمن الاشتباك: انت لا تعرف كيف يمر المقاتل بين طلقتين طوال نهاره. كان عصام يندفع كالسهم ليخطف رأس ملفوف

ممزق او حزمة بصل، وربما تفاحة من بين عجلات الشاحنة وهي تتأهب للتحرك، وكنت انا بدوري أتصدق للشياطين ـ اي بقية الاطفال ـ اذا ما حاولوا تناول برتقالة شهدتها في الوحل قبلهم. وكنا نعمل طوال العصر: نتشاجر عصام وانا من جهة مع بقية الاطفال او اصحاب الدكاكين أو السائقين أو رجال الشرطة احياناً، ثم اتشاجر مع عصام فيما تبقى من الوقت.

كان ذلك زمن الاشتباك. اقول هذا لانك لا تعرف: ان العالم وقتئذ يقف على رأسه، لا احد يطالبه بالفضيلة.. سيبدو مضحكاً من يفعل... ان تعيش كيفما كان وبأية وسيلة هو انتصار مرموق للفضيلة. حسناً. حين يموت المرء تموت الفضيلة ايضاً أليس كذلك؟ اذن دعنا نتفق بأنه في زمن الاشتباك يكون من مهمتك ان تحقق الفضيلة الاولى، اي ان تحتفظ بنفسك حياً. وفيما عدا ذلك يأتي ثانياً. ولانك في اشتباك مستمر فانه لا يوجد « ثانياً ». أنت دائماً لا تنتهي من « أولاً ».

وكان يتعين علينا ان نحمل السلة معاً حين تمتلىء ونمضي عائدين الى البيت: ذلك كان طعامنا جميعاً لليوم التالي.. بالطبع كنا أنا وعصام متفقين على ان نأكل أجود ما في السلة على الطريق. ذلك اتفاق لم نناقشه ابداً، لم نعلن عنه ابداً. ولكنه كان يحدث وحده. ذلك اننا كنا معاً في زمن الاشتباك.

وكان الشتاء شديد القسوة ذلك العام الملعون وكنا نحمل سلة ثقيلة حقاً، (هذا شيء لا انساه، كأنك وقعت اثناء المعركة في خندق فاذا به يحوي سريراً) وكنت آكل تفاحة، فقد كنا خرجنا من بوابة السوق وسرنا في الشارع الرئيسي. قطعنا ما يقرب من مسير عشر دقائق بين الناس والسيارات والحافلات وواجهات الدكاكين دون ان نتبادل كلمة (لان

السلة كانت ثقيلة حقاً وكنا نحن الاثنين منصرفين تماماً الى الاكل) وفجأة . .

لا . هذا شيء لا يوصف . لا يمكن وصفه : كأنك على نصل سكين من عدوك وانت دون سلاح واذا بك في اللحظة ذاتها تجلس في حضن امك . .

دعني أقل لك ما حدث : كنا نحمل السلة كما قلت لك وكان شرطي يقف في منتصف الطريق ، وكان الشارع مبتلاً ، وكنا تقريباً دون احذية . ربما كنت انظر الى حذاء الشرطي الثقيل والسميك حين شهدتها فجأة هناك كان طرفها تحت حذائه اي كنت بعيداً حوالي ستة امتار ولكنني عرفت، ربما من لونها ، انها اكثر من ليرة واحدة .

نحن في مثل هذه الحالات لا نفكر . يتحدثون عن الغريزة . طيب . انا لا اعرف ما اذا كان لون الاوراق المالية شيئاً له علاقة بالغريزة . له علاقة بتلك القوة الوحشية ، ، المجرمة ، القادرة على الخنق في لحظة ، الموجودة في اعماق كل منا . ولكن ما اعرفه هو ان المرء في زمن الاشتباك لا ينبغي له ان يفكر حين يرى ورقة مالية تحت حذاء الشرطي وهو يحمل سلة من الخضار الفاسد على بعد ستة امتار . وهذا ما فعلته : القيت ببقايا التفاحة وتركت السلة في اللحظة ذاتها . ولا شك ان عصام تمايل فجأة تحت ثقل السلة التي تركت في يده ولكن كان قد شاهدها بعدي بلحظة واحدة . الا انني بالطبع كنت قد اندفعت تحت وطأة تلك القوة المجهولة التي تجبر وحيد القرن على هجوم اعمى ، غايته آخر الارض ، ونطحت ساقي الشرطي بكتفي فتراجع مذعوراً . وكان توازني انا الآخر قد اختل . ولكنني لم اقع على الارض ـ وفي تلك اللحظة التي يحسب فيها الاغبياء ان لا شيء يمكن له ان يحدث ـ شاهدتها : كانت خمس

ليرات.لم اشاهدها فحسب بل التقطتها واستكملت سقوطي. الا انني وقفت بأسرع مما سقطت وبدأت اركض بأسرع مما وقفت.

ومضى العالم بأجمعه يركض ورائي: صفارة الشرطي، وصوت حذائه يقرع بلاط الشارع ورائي تماماً. صراخ عصام، اجراس الحافلات. نداء الناس.. هل كانوا حقاً ورائي؟ ليس بوسعك ان تقول وليس بوسعي ايضاً. لقد عدوت متأكداً حتى صميمي ان لا احد في كل الكواكب السيارة يستطيع ان يمسكني. وبعقل طفل العشر سنوات سلكت طريقاً آخر. ربما لانني حسبت ان عصام سيدل الشرطي على طريقي. لست ادري. لم التفت. كنت أركض ولا اذكر انني تعبت.. كنت جندياً هرب من ميدان حرب أجبر على خوضها وليس امامه الا ان يظل يعدو والعالم وراء كعبي حذائه.

ووصلت البيت بعد الغروب، وحين فتح لي الباب شهدت ما كنت أشعر في اعماقي انني سأشهده: كان السبعة عشر مخلوقاً في البيت ينتظرونني. وقد درسوني بسرعة، ولكن بدقة، حين وقفت في حلق الباب ابادلهم النظر: كفي مطبقة على الخمس ليرات في جيبي، وقدماي ثابتتان في الارض.

كان عصام يقف بين امه وابيه، وكان غاضباً. لا شك ان شجاراً قد وقع بين العائلتين قبل مقدمي. واستنجدت بجدي الذي كان جالساً في الركن ملتحفاً بعباءته البنية النظيفة ينظر الي باعجاب: رجلاً كان حكيماً. رجلاً حقيقياً يعرف كيف ينبغي له ان ينظر الى الدنيا. وكان كل ما يريده من الخمس ليرات: جريدة كبيرة هذه المرة.

وانتظرت الشجار بفارغ الصبر. كان عصام بالطبع قد كذب: قال لهم انه هو الذي وجد الخمس ليرات وانني اخذتها منه بالقوة. ليس

ذلك فقط بل اجبرته على حمل السلة الثقيلة وحده طوال المسافة المنهكة: الم اقل لك انه زمن الاشتباك؟ لم يكن اي واحد منا مهتماً بمناقشة عصام، بصدقه او بكذبه فذلك شيء لا يمكن ان يكون له اية قيمة. لم يكذب عصام فقط بل كان متأكداً أنَّ أحداً لن يهتم بالحقيقة. ليس ذلك فقط بل أنه ارتضى أن يذل نفسه ويعلن ربما للمرة الأولى أنني ضربته وأنني أقوى منه.. ولكن ما قيمة ذلك كله أمام المسألة الحقيقية الأولى.

كان ابوه يفكر بشيء آخر تماماً: كان مستعداً لقبول نصف المبلغ وكان أبي يريد النصف الآخر لأنني لو نجحت في الاحتفاظ بالمبلغ كله لصار من حقي وحدي، أما إذا تخليت عن هذا الحق فسأفقد كل شيء وسيتقاسمون المبلغ.

ولكنهم لم يكونوا يعرفون حقاً معنى ان يكون الطفل ممسكاً بخمس ليرات في جيبه زمن الاشتباك.. وقد قلت لهم جميعاً بلهجة حملت لأول مرة في حياتي طابع التهديد بترك البيت والى الابد: ان الخمس ليرات لي وحدي.

وانت تعرف لا شك: جن جنونهم، ضاع رابط الدم فوقفوا جميعاً ضدي. لقد انذروني اولاً. ولكنني كنت مستعداً لما هو اكثر من ذلك ثم بدأوا يضربونني. وكان بوسعي بالطبع ان ادافع عن نفسي، ولكن لانني اردت ان احتفظ بكفي داخل جيبي مطبقة على الخمس ليرات فقد كان من العسير حقاً ان اتجنب الضربات المحكمة. وقد تفرج جدي على المعركة باستثارة بادىء الامر ثم لما بدأت المعركة تفقد طرافتها قام فوقف امامهم، وبذلك يسر لي ان التصق به. اقترح تسوية. قال ان الكبار لا حق لهم بالمبلغ. ولكن من واجبي ان آخذ كل اطفال البيت

ذات يوم صحو الى حيث نصرف جميعاً مبلغ الخمس ليرات كما نشاء.

عندها تقدمت الى الامام معتزماً الرفض الا انني في اللحظة ذاتها شهدت في عينيه ما امسكني. لم افهم بالضبط آنذاك ما كان في عينيه ولكنني شعرت فقط انه كان يكذب وانه كان يرجوني ان اصمت.

انت تعرف ان طفل العشر سنوات ـ زمن الاشتباك ـ لا يستطيع ان يفهم الامور (اذا كان ثمة حاجة لفهمها) كما يستطيع عجوز مثل جدي. ولكن هذا هو ما حصل. كان يريد جريدته ربما كل يوم لمدة اسبوع ـ وكان يهمه ان يرضيني بأي ثمن.

وهكذا اتفقنا ذلك المساء. ولكنني كنت اعرف ان مهمتي لم تنته. فعليّ ان احمي الليرات الخمس كل لحظات الليل والنهار. ثم علي ان اماطل بقية الاطفال. وعلي ايضاً ان أواجه محاولات اقناع وتغرير لن تكف عنها امي. قالت لي ذلك المساء ان الليرات الخمس تشتري رطلين من اللحم، أو قميصاً جديداً لي، أو دواء حين تقتضي الحاجة، او كتاباً اذا ما فكروا بارسالي الى مدرسة مجانية في الصيف القادم.. ولكن ما نفع الكلام؟ كأنها كانت تطلب مني وأنا أعبر بين طلقتين ان انظف حذائي.

ولم اكن أعرف بالضبط ماذا كنت انوي ان افعل. ولكنني طوال الاسبوع الذي جاء بعد ذلك نجحت في مماطلة الاطفال، بآلاف من الكذبات التي كانوا يعرفون انها كذلك ولكنهم لم يقولوا اطلاقاً انها اكاذيب. لم تكن الفضيلة هنا. انت تعلم. كانت مسألة اخرى تدور حول الفضيلة الوحيدة آنذاك: الخمس ليرات.

ولكن جدي كان يفهم الأمور وكان يريد جريدته ثمناً معادلاً لدوره في القصة، وحين مضى الأسبوع بدأ يتململ. لقد شعر (من المؤكد انه

شعر، ذلك لان رجلاً عجوزاً مثله لا يمكن ان تفوته تلك الحقيقة) أنني لن اشتري له الجريدة، وانه فقد فرصته، ولكنه لم يكن يمتلك أية وسيلة لاستردادها.

وحين مرت عشرة أيام اخرى اعتقد الجميع انني صرفت الليرات الخمس، وان يدي في جيبي تقبض على فراغ. على خديعة. ولكن جدي كان يعرف ان الليرات الخمس ما تزال في جيبي. وفي الواقع قام ذات ليلة بمحاولة لسحبها من جيبي وانا مستغرق في النوم، (كنت أنام بملابسي) الا انني صحوت فتراجع الى فراشه ونام دونما كلمة.

قلت لك. انه زمن الاشتباك. كان جدي حزيناً لانه لم يحصل على جريدة وليس لانني نكثت بوعد لم يتفق عليه. كان يفهم زمن الاشتباك ولذلك لم يلمني طوال السنتين اللتين عاشهما بعد ذلك على ما فعلته. وقد نسي عصام القصة ايضاً. كان في اعماقه ـ كطفل صعب المراس ـ يفهم تماماً ما حدث. واصلنا رحلاتنا اليومية الى سوق الخضار، كنا نتشاجر اقل من أي وقت مضى ونتحادث قليلاً. يبدو ان شيئاً ما ـ جداراً مجهولاً ارتفع فجأة بينه ـ هو الذي ما زال في الاشتباك ـ وأنا الذي تنفست ـ ليس يدري كم ـ هواء آخر.

واذكر انني احتفظت بالخمس ليرات في جيبي طوال الخمسة اسابيع: كنت اعد خروجاً لائقاً بها في زمن الاشتباك. الا ان كل شيء حين يقترب من التنفيذ كان يبدو وكأنه جسر للعودة الى زمن الاشتباك وليس للخروج منه.

كيف تستطيع ان تفهم ذلك؟ كان بقاء الليرات الخمس معي شيئاً يفوق استعمالها. كانت تبدو في جيبي وكأنها مفتاح أمتلكه في راحتي واستطيع في اية لحظة ان أفتح باب الخروج وامضي. ولكن حين كنت

اقترب من القفل كنت اشم وراء الباب زمن اشتباك آخر. أبعد مدى. كأنه عودة إلى بداية الطريق من جديد.

وما بقي ليس مهماً: ذات يوم مضيت مع عصام إلى السوق وقد اندفعت لأخطف حزمة من السلق كانت امام عجلات شاحنة تتحرك ببطء. وفي اللحظة الاخيرة زلقت وسقطت تحت الشاحنة. كان حظي جيداً فلم تمر العجلات فوق ساقي، انما توقفت بالضبط بعد ملامستها. وعلى أية حال صحوت من اغمائي في المستشفى. وكان أول ما فعلته ـ كما لا شك تخمن ـ ان تفقدت الخمس ليرات. الا انها لم تكن هناك.

أعتقد أن عصام هو الذي أخذها حين حملوه معي في السيارة إلى المستشفى. ولكنه لم يقل وأنا لم أسأل. كنا نتبادل النظر فقط ونفهم. لا، لم أكن غاضباً لأنه كان ملهياً وأنا أنزف دمي بأخذ الليرات الخمس. كنت حزيناً فقط لأنني فقدتها.

وانت لن تفهم. ذلك كان في زمن الاشتباك.

اذار ـ ١٩٦٧

٧ ـ الصَغيرُ يكتَشِفُ أنّ
المفتاح يُشبِهُ الفأسَ

انه يشبه فأساً صغيرة، ولو لم تكن مؤخرته متوجة بحلقة لحسبت انه نموذج مصغر لفأس حقيقية، ولست اذكر الآن من الذي صنعه ولا فيما اذا كان قد قصد ذلك قصداً ولكنه، احياناً كان يبدو أليفاً ومعتاداً إلى حد تغيب عنه صورة الفأس ولا يتبقى، ثمة، إلا المفتاح.

في البدء كنت أحسب أنني وحدي الذي أرى فيه شكلاً لفأس صغيرة ، وكنت في تلك الفترة أرى أموراً كثيرة على غير ما هي في الحقيقة ، وبيني وبين نفسي كنت أحسب أنني أعاني من مرض خطير يجعل الأشياء تبدو لي مختلفة عمّا تبدو فيه للآخرين ، وفي مرتين أو ثلاث مرات عجزت عن اقناع شقيقي بأن الغيمة التي كانت تبدو لنا معاً تكاد تكون أسداً ، وكان يقول لي : إنها غيمة فقط ، ولم أكن لأستطيع أن أقنعه إذ أن الغيمة كانت سرعان ما تتفتت وتصير شيئاً آخر .

ولكن ذلك، على اي حال، لم يكن يحدث بما يختص بالمفتاح، والواقع انني لم اقل لأحد انه يشبه الفأس الصغيرة، وحدث ذات يوم ان فوجئت بأن هذه الحقيقة كانت شائعة أكثر مما اعتقدت. فحين شكوت لأبي انني لم اعد استطيع مواصلة التحطيب معه بسبب ثقل الفأس وقف ونظر الي مستغرباً ثم اخرج المفتاح من حزامه وقال لي ساخراً: «لعلك

تحتاج لمثل هذه الفأس؟»، ونظرت الى المفتاح مدهوشاً، اكاد ابتسم، الا ان ابي نهرني بتلك الشتيمة التي كان يضعها في مكان ما بين الغضب والاستسلام «روح.. غوارة تاخذك».

كان مفتاحاً كبير الحجم له لون بني كامد ميال الى الحمرة، إلا ان رأسه كان لماعاً ويتخذ شكل نصل الفأس العريض في نهايته والضيق في رأسه المربوط إلى الوتد، ولم يكن ابي نفسه يعرف من الذي صنعه فقد كان كما يقول يشاهده مع ابيه منذ كان طفلاً، وكان يقول ان أباه ايضاً كان يراه كما لو كان فأساً صغيرة مسخته قوة ما الى مفتاح.

والذي لا شك فيه ان شكل المفتاح كان يثير السخرية احياناً عند اولئك الذين كانوا يرونه لأول مرة، وكنا في البيت نتوقع ان يقول لنا مضيف، حين يرى المفتاح، شيئاًطريفاً، وكانوا في الغالب يقولون: «اهذه هي فأسكم؟» وكان ابي يجيب ببرود جواباً تعلمه بدوره عن ابيه: «كلا، هذا مفتاحنا، فأسنا في الاسطبل، هل تحب ان تراها؟» وكنا نحن، الاولاد، نضحك كل مرة بصخب شديد كأننا لم نسمع ذلك الجواب من قبل. وكان ذلك يسر أبي تماماً.

بالنسبة لنا كان المفتاح مجموعة فضائل دخلت حياتنا ببطء ولكن بثبات، فهو المفتاح الوحيد الذي لم يستطع الزمن ان يضيعه، لقد كان كل رجل في القرية، كل طفل، كل امرأة، يعرفون ان هذا المفتاح هو مفتاح دار جابر، بل كان ثمة أناس في القرى المجاورة يعرفون ذلك ايضاً فاذا ما ضاع او سقط يعود إلى الدار كأنما من تلقاء نفسه.. وكان المفتاح، ايضاً، يستعمل لعدة اغراض لان شفرته كانت حادة، وكانت مؤخرته الثقيلة تستعمل كمطرقة صغيرة، واذكر ان امي قالت لاحدى نسيباتها ان حماتها قشرت بشفرته ذات يوم بصلة حين ضيعت سكينها،

وان عمها ظل طيلة أيام يشم رائحة البصل تحوم حوله دون ان يعرف من اين تنبعث.

●

اعتقد انني نسيت المفتاح حين ذهبت لأدرس في القدس وغبت عن كل اشياء القرية غياب الشاب الذي اخذ يكتشف عالماً جديداً، ولكن العالم الذي اكتشفته فيما بعد كان هو ذاته العالم الذي تركته. كيف اشرح ما حدث لي؟ انه يبدو معقداً بمقدار ما هو بسيط.. لقد عشت في القدس ثلاث سنوات متواصلة، رأيت والدي فيها مرات عديدة ولكن قصيرة، كان يأتي إلى القدس ويجلس في غرفتي الصغيرة وكنت أرى المفتاح في حزامه، وعند ذاك فقط كانت القرية كلها تنبعث في رأسي كنسمة ريح غامضة، ولكن فيما عدا ذلك كان المفتاح يغيب حين يغيب والدي، وكنت اعتقد انني آخذ في اكتشاف عالم لا مفاتيح له، عالم جديد ومثير بلا حدود، إلا أن ذلك، كما ظهر لي فيما بعد، كان مجرد وهم، فقد عدت من الكلية ذات يوم فقالت لي السيدة صاحبة الغرفة ان رجلاً اسمه يحيى سأل عني وسيعود في الليل، وسألتها من اين جاء فقالت انه جاء من القرية، وعند ذاك فقط تذكرت يحيى هذا: انه شاب ضئيل شديد السمرة كان مشهوراً فيما بيننا بأنه صامت ولكنه يخفي تحت صمته خبثاً لا حد له، وامي كانت تقول انه «حية تحت التبن»، فما الذي جاء به الآن الى القدس؟

ـ قال انه جاء بشأن مفتاح.

ـ مفتاح؟

وفجأة ارتد العالم كله ووقف امامي دفعة واحدة، ربما كانت تلك هي المرة الاولى في حياتي التي اسمع فيها كلمة مفتاح مجردة من الـ

«الـ». كان دائما «المفتاح» فما الذي جعله الآن «مفتاحاً» فقط؟ لقد بدا لي الامر معقداً وإلى حد ما ينذر بالشر، وانتظرت يحيى الى ان اتى في الليل، فسلم علي ببرود وجلس واخذت انظر اليه بريبة، وبعد قليل اخذ صوته ينهمر بذلك البرود الذي يتسلح به رسول النبأ التعيس:

- البقية بحياتك.

- من؟

- والدك.

واستل المفتاح من حزامه ووضعه وسط الدوامة التي كانت تعصف برأسي، كأنه وتد أستعين به على التوقف في ذلك الدوران المفجع، ووقف:

- مات شريفاً وشجاعاً كما عاش. لولاه لاحتلوا..

وسكت، تاركاً لي اكمال رسم الصورة التي اشاء لرجل لم يعد بوسعي ان اراه بعد، وإلى الأبد، ودفع المفتاح اكثر نحوي:

- اخذت العجوز الاولاد الى عكا. تقول لك: هذا هو المفتاح، ستجد زيتاً وطحيناً في الغرفة الخلفية، وهناك تنكة زيتون تحت سدة الفراش، وملابسك في مكانها اما الحصان فقد وضعوه عند المختار.

وفتحت راحة يدي فوضع الفأس فيها، وذهب.

وعدت الى القرية حين ابلغت انها معرضة لهجوم وقد تسقط بين لحظة واخرى، وكان يتعين علي ان أترك الباص قبل القرية بمسافة طويلة لتعذر وصوله إلى هناك، ولما كنت أعرف المنطقة تماماً فقد أخذت اضرب في «الشول»، وبعد قليل تخلصت من حقيبتي، كان ايار ذاك حاراً على غير عادته، وحين خلعت معطفي تذكرت أن أستل

المفتاح من جيبه خوف أن يسقط ، وأذكر أنني حين دخلت القرية بعد ثلاث ساعات من السير لم أكن أحمل إلا المفتاح .

وكنت اعرف ان الهدوء الكامل في القرية يخفي تحته تربصاً مستثاراً، واخذت اسير قرب الجدران كقطة طريدة، وقريباً من البيت قفز يحيى أمامي وهو يحمل بندقيته وجرني وراء جدار ودون أن يسلم سألني :

ـ لقد تأخرت. اين المفتاح؟

ولم يتركني لانتشي بهذه الـ «ال» الدافئة تعود إلى مفتاح بيتنا، فطيلة الاسابيع الماضية كان رفاقي في القدس، حين يرونه على الطاولة، يقولون: هذا مفتاح، وكان ذلك يغيظني ولكن دون ان يدفعني إلى الكـلام ، اما يحيى فقد جعل الامر طبيعياً ودافئاً من جديد، واخذ يكرر:

ـ أين المفتاح ؟

ولم ينتظر، فقد رآه في يدي وسحبه ولوح برأسه ان اتبعه وحين كنا نصعد التلة قال لي: ان موقع بيتكم ممتاز، ثم انني اذكر ان امك تركت لنا فيه تنكة زيتون وطحيناً.

فجأة تكور العالم حولي من جديد. امك تركت لنا. احسست بدفء افتقدته طيلة سنوات وبلغ بي اعتيادي على فقدانه حداً جعلني اقبله ولكن تلك اللحظة كانت لحظة اخيرة وقف يحيى فجأة ووضع المفتاح في يدي من جديد، وذكرني وجهه باليوم الذي جاء فيه الى القدس ليقول لي «البقية بحياتك»، ولكنه لم يقل شيئاً، ونزلنا التلة معاً صامتين: هو يحمل بندقيته وأنا أطوي رأسي على الفأس.

قطعة حديد؟ هكذا كان يراها كثيرون. يبدو ان شقيقتي لم تجد مكاناً تضعه فيه فدقت له مسمارين وعلقته نائماً على الحائط فوق الراديو

مباشرة. كان مفتاحاً ضخماً وجميلاً وغريباً بعض الشيء ولكنه بالنسبة لضيوفنا كان مجرد مفتاح ضخم وجميل وغريب. كان المسمار الاول يدخل في حلقته والثاني يقع تحت رأسه. مرت فوقه رياح عشرين سنة وراكمت عليه غبارها وصدأها. ولكنه ظل هناك. كان جزءاً من حائطنا الجديد، واذكر ان شقيقتي انتزعته مرة لتنفض عنه الغبار فبدت الغرفة فوراً مبتورة وباردة ومهجورة، وقد اتفقنا، أنا وشقيقتي، على هذه الحقيقة بمجرد تبادل النظر.

يوماً بعد يوم صار مفتاحنا مفتاحاً فقط، بالنسبة للكثيرين، وربما احياناً بالنسة لي انا ايضاً، هل اقول اننا نسيناه؟ لا، بالطبع ولكنه لم يعد يذكرني بالفأس. احياناً كنت اجلس وانظر اليه ملياً واتساءل: كيف كنت اراه، ذات يوم، فأساً صغيرة؟ كيف كان جدي يعتقد انها فأس مسختها قوة جبارة الى مفتاح؟ وكان ابني حسان قد ولد فرآه هناك واغلب الظن انه كان يراه مثل صورة معلقة على الجدار وكنت انتظر ذات يوم ان يقول لي انه يشبه الفأس، مثلما انتظر والدي مني ان افعل، ولكن ذلك لم يخطر على باله كما يبدو، وكنت أقول لنفسي: ما النفع؟ ما الذي اريده؟

لقد مر عشرون ايار. ان ذلك لا يعني شيئاً. كان ايار يذكرني بشيء ما ولكنه كان شيئاً غامضاً مثل كابوس، وكنت اقول لنفسي: ان الزمن نهر متصل وايار هو جزء من ذلك الزمن. انه لا يعني شيئاً على التحديد. ان منتصف ايار، مثله مثل منتصف اي شهر آخر، مثل اي يوم آخر من ايام السنة، بل من ايام السنوات العشرين التي مرت، لا يعني شيئاً على التحديد. لقد كان جسراً ليوم آخر ولا يمكن لأي جسر ان يكون ان لم يكن طرفاه مربوطين الى شيء هنا وشيء هناك.. ولكن المفتاح كان شيئاً آخر، كان شيئاً خاصاً لم يستطع بالنسبة لي أبداً

ان يكون مجرد مفتاح، صحيح انه فقد تلك الـ «ال» الدافئة على ألسنة اصدقائي وزواري الا انه، لي ولشقيقتي، لم يفقدها وكنا نلفظ تلك الـ «ال» بالتشديد فتصدر صوتاً كأنه اصطفاق باب.

سأقول لكم الآن ما الذي حدث، الذي حدث للمفتاح ولمنتصف ايار معاً. ان ذلك يبدو وكأنه صدفة لا يفهمها عقل بشري، ولكنها صدفة - بالنسبة لي - كانت ممكنة تماماً، وحين حدثت قلت لنفسي: كيف لم أتوقع ان تحدث طيلة الوقت الذي مضى؟

لقد جاءت شقيقتي ذلك الصباح وفتحت الراديو، كان حسان جالساً يتناول فطوره في الغرفة، ويبدو ان شقيقتي لم تضبط الصوت فدوى الصوت فجأة عالياً كالرعد واخذ يهز الغرفة الصغيرة هزاً، كنت منصرفاً بكليتي للسماع حين سقط احد المسمارين من تحت المفتاح فسقط جسد المفتاح واخذ ينوس جيئة وذهاباً على المسمار المثبت في حلقته، وتلاقت انظارنا شقيقتي وانا فيما شعرت برجفة منعتني عن الكلام، ويبدو انها احست بالرجفة ذاتها فيما مضى المفتاح ينوس مصدراً حفيفاً كأنه الريح، صاح حسان مشيراً باصبعه الى المفتاح:

- انظر، انه يشبه الفأس!

ايار - ١٩٦٧

٨ - صديق سلمان يتعلم أشياء كثيرة في ليلة واحدة *

مثل محجر نزعت منه العين كانت فوهة البندقية القصيرة مصوبة الى وجهه تماماً، وبدا الرجل الذي يحملها كمن يلبس بذلة ليست له، مشمراً عن ساعدين يكسوهما زغب اشقر، ويضع فوق رأسه خوذة مفكوكة الحزام. لم يكن خائفاً تماماً، فقد ملأه شعور عميق بأنه بريء وبأنه لن يقتل ولكنه لم يكن ليستطيع تركيز ذهنه على شيء واحد.

وحين تحركت الفوهة، كأنها اصبع تشير الى الاتجاه، مشى ببطء، وهنا جاءته الفكرة الاولى: لقد تعلم ذلك من السينما، إذ كيف يستطيع ان يفهم بأن حركة البندقية، على تلك الصورة التي لا تكاد ترى، امر بالمشي؟ بل كيف يتوقع الجندي منه ان يفهم لو لم يكن واثقاً انه تعلم ذلك من السينما؟

وحاول بعد ذلك ان يتذكر فيلماً معيناً رأى فيه هذا المشهد بالذات، ولكنه صرف النظر عن المحاولة بشيء من الغضب، كان يعرف ان عليه الآن التفكير بشيء آخر، وبدا ذلك مستحيلاً كأن رأسه ربطت داخل جاذبية تلك الفوهة الفولاذية، وحين خرج من الباب اضاف الى فكرته تفصيلاً جديداً: ان الجندي نفسه يبدو وكأنه ممثل سينمائي، وقال لنفسه: لقد تعلم ذلك من السينما.

وراودته رغبة بالالتفات الى الوراء لينظر الى الجندي مرة اخرى،

* نشرت هذه القصة بعنوان « الفدائي ».

ولكنه لم يجرؤ على ذلك، وحاول ان يجمع في رأسه صورته كما رآه لأول مرة قبل عشرين دقيقة تقريباً، ونجح في ذلك الى حد ما متأكداً من جديد انه صورة عن ممثل سينمائي وقال لنفسه: «كأنه خارج ليتصور، جاهزاً لأن تكون صورته مؤثرة الى ابعد مدى بالمشاهدين».

وكان يؤلمه ان لا يكون بوسعه الخروج من هذا الاطار الذي لا لزوم له والذي يطوق افكاره باحكام، كانت خطواته رتيبة، وخال ان ذلك هو السبب الذي يحول دون خروجه عن رتابة افكار ليست مناسبة لحالته، فوقف.

ولكن شيئاً لم يحدث، لقد صمتت اصوات الخطوات على الحصى وراءه دفعة واحدة، وساد سكون عميق ينبض بتوقعات لا حصر لها، وفي هذه الهوة من الفراغ تذكر صمتاً مماثلاً: قال له الضابط الذي كان يدربه: اقذفها! ففك زناد القنبلة اليدوية وعد ببطء الى ثلاثة ثم طوحها فوق رأسه الى ابعد مدى تستطيعه ذراعه، وشاهد القنبلة تخبط الارض على بعد، وتقفز بثقل ثلاث مرات، ثم تقف. وانتظر هنيهة محني الظهر وذراعه مفروشة الى الامام كأنه تمثال اغريقي، ولكن القنبلة ظلت هناك صامتة كأنها حجر، مرعبة كأنها الموت، وقال له الضابط: «لم تنفجر»، فقال مكرراً: «لا، لم تنفجر». وظل واقفاً، لا يعرف ما يفعل، وبعد لحظة سمع الضابط يقول بهدوء: «اذهب وهاتها». فالتفت، محاولاً ان يبتسم نصف ابتسامة، الا ان الضابط ظل متجهماً، وقال مرة اخرى: «اذهب وهاتها، قلت لك اذهب». وفكر: قد تنفجر». ثم نقل خطواته مكانها حائراً ولكنه لم يتقدم، واخيراً قرر ان يقول: «لن اذهب، فقد تنفجر بين يدي» وتنفس الصعداء كأنه ازاح عن صدره هماً، ! ولكن الضابط صاح بصوت راعد: «اذهب وهاتها، اقول لك، هذا امر. تحرك!» وفجأة صمت كل الضجيج حوله، وتقاطر الرجال الذين

انهكهم التدريب واحاطوا به صامتين، ونظر اليهم مغتسلين بالغبار الفضي، يلهثون بأصوات مكتومة، وكانت القنبلة على بعد جيل من الحماقة، مرمية هناك كأنها خارج اللعبة. وتحت سياط النظرات قرر الا يتراجع، وقال: «لا، لن اذهب، هذا جنون» وارتفعت ضجة صغيرة حوله، ثم هرج الحصى تحت أقدام الضابط الذي ارتد خطوتين الى الوراء، وفجأة حدث ما لم يكن يحسب حسابه صوب الضابط فوهة بندقيته نحو وجهه، مباشرة، وامره بصوت بارد: «اقول لك اذهب وهاتها»، ثم انفتحت هوة سحيقة من الصمت تنبض فيها توقعات لا حصر لها.

●

وامتد الصمت الى اطول مما توقع، ولكن شيئاً لم يحدث، وكانت عضلات ظهره تنتفض مشدودة الى اقصاها وهو يتوقع ان تدفعه فوهة البندقية الى الامام، ولكن شيئاً لم يحدث، وما لبث، خلال زمن لم يعد يستطيع ان يحسبه كما ينبغي ان ارتد الى جاذبية فولاذ البندقية التي كان يحسها وراءه تماماً، وقال لنفسه: «كما يحدث في السينما» ثم قال مرة اخرى: «انه يشبه ممثلاً ما، مستعداً لعرض مأجور أمام آلة تصوير موضوعة في مكان خفي» وبذل جهداً كي يقفز من دائرة أفكاره التي كان يحس كم كانت خارجة عن الموضوع، وقال لنفسه: الجندي ورائي، ووراءه أخي رياض، بلا شك، ثم أمي، وهناك رتل طويل من الاشخاص لا بد ان يكون مؤلفاً من الجيران جميعاً، وبينهم يقف الجنود وكل واحد منهم يضع اصبعه على الزناد. هل يضع الجميع اذرعتهم فوق رؤوسهم كما افعل انا؟ لا شك. سيبدو رياض مضحكاً بعض الشيء فذراعاه قصيرتان جداً، وسيحسب الاسرائيليون انه لا يرفعهما كما ينبغي، اما الأم؟

وعندها فقط اندفعت فوهة البندقية في ظهره فسار خطوتين رغماً

عنه، وسقطت صورة امه من رأسه وتحطمت وتناثرت قطعها وشظاياها، وحين حاول ان يقف مرة اخرى دفعته الفوهة من جديد، فأخذ يسير محاولاً ألاّ يفكر.

ولكن ذلك كان مستحيلاً، فقد انفجرت في رأسه فكرة جديدة: «ما دمت لا استطيع الوقوف فلماذا لا اسرع؟، ذلك أيضاً سيكون مزعجاً للجندي». ولكنه اطرح الفكرة وقال: «لو اسرعت لأطلق النار». وما لبث ان استنتج شيئاً هاماً: «انه يضحي اكثر اماناً كلما اقترب من البندقية، واكثر عرضة للموت كلما ابتعد عنها».

واعجبته الفكرة فابتسم لنفسه، وقال: «انها مبدأ عسكري جديد وممتاز ويشرح امرراً عديدة» وخيل اليه ـ ولكن بصورة غامضة ـ ان الفكرة اخطر شأناً مما تبدو في ظاهرها البسيط، بل اوسع واعمق مما يحسب هو نفسه، واعترف بينه وبين ذاته: «ولكنها جاءت ببطء شديد».

●

« ببطء شديد» . كان الضابط ما زال يصوب نحوه فوهة بندقيته وطلب منه ارتكاب تلك الحماقة القاتلة والتقاط القنبلة التي لم تنفجر، ولكنه لم يتحرك، وبقي واقفاً وسط مطر من النظرات المترقبة يسوطها رفاقه المكسوون بالغبار الفضي، منذ جاء الى هذه الدورة التدريبية وهم يحذرونه من هذا الضابط الذي لا يعرف الرحمة. انه مستعد للقتل. لم يكن ضابطاً ولكنهم كانوا يسمونه كذلك. كان مدرباً فقط. والآن ماذا سيفعل.

وفجأة تقدم رفيقه سلمان، وقال للضابط: «أتسمح أن أحل المشكلة عنه؟» فهز الضابط رأسه موافقاً ومتخلصاً من مأزق كان يبدو قبل لحظة مسدوداً تماماً، فتقدم سلمان الى الامام، وصوب بندقيته نحو

القنبلة ففجرها في بركان صغير من الحصى والغبار والدخان ، والتفت الضابط إليه غاضباً : « تفكر ببطء شديد ، لا تصلح لتكون فدائياً ، فهمت ؟ لا تصلح ! » وأخذ سلمان ينظف بندقيته منصرفاً عن تسبيب احراج أكثر ، وقفل هو عائداً إلى الخيمة التي كانت الشمس تشويها في فرن خرافي من الغبار ، وحين جلس هناك أحس كأنه يبكي .

●

ـ اجلسوا هنا .

وجلس واضعاً كفيه فوق رأسه، وجلست امه الى جواره، ووراءهما جلس رياض وبقية الرجال. كان هناك رجال ونساء واطفال ما زال النوم يثقل أجفانهم، واخذوا يسيرون من امامه، مترنحين وايديهم الصغيرة مرفوعة بارتخاء، كأنهم يمشون في نومهم، وجلسوا على اكوام الحجارة وسط بحيرة مظلمة من الصمت.

وقالت له امه هامسة: «ماذا سيفعلون بنا؟» وجاء صوت الجندي من الخلف: «هش». ثم جـيء بضوء مرفوع على عصا، وتقدم جنود آخرون فوقفوا امامهم مثل المعلمين في المدرسة، وقال احدهم: «اذن فأنتم لم تروا احداً منهم؟» وقالت امه هامسة، مرة اخرى: «الكلب، يتكلم العربية ايضاً» ونظر الجندي نحوها، ثم تلاقت نظراتهما، فقال: «انت. تعال الى هنا» والتفت الى جندي آخر يقف الى جانبه وقال له: «انه لا يعجبني».

وقام ، وذراعاه ما زالتا إلى فوق ، وفكر : « كانوا في المدرسة ، في درس الرياضة ، يعلموننا أن ننهض دون الاستعانة بأذرعتنا ، وكان ذلك يبدو صعباً ، فكيف تم الآن بسهولة ؟ » ونفض رأسه محاولاً أن يواجه الموقف ، ولكن الفكرة استمرت « يتعلم الانسان

أموراً عديدة في لحظات غريبة ، دون أن يقصد ذلك » .

ـ قف هنا.

وقف. .

ـ ارفع ذراعيك عالياً.

رفع ذراعيه الى اعلى ما يستطيع.

ـ اين كنت قبل ساعتين!

هذا هو التحقيق اذن. وقرر ان يكون حريصاً وان يعرف اين يضع خطواته. ففكر قليلاً، ثم اجاب:

ـ نائماً.

ـ وهل تحتاج الى كل هذا الوقت لتتذكر انك كنت نائماً؟ حين أسألك أجبني بسرعة، فهمت؟

ـ فهمت يا. .

وكان على وشك ان يقول «يا سيدي»، ولكنه لم يستطع وراوده ارتياح صغير ان الجندي لم يلحظ ذلك.

ـ وكيف تريدني ان اصدق ذلك؟ هل لديك برهان على انك كنت نائماً في بيتك؟

واشار برأسه اشارة ضعيفة نحو امه الجالسة خلفه، وقال بصوت خفيض:

ـ اسألها، انها امي.

ـ كنت نائماً مع امك يا صبي امك؟

وضحك الجنود، وكذلك ضحك رجل او رجلان من الجالسين

خلفه، وفكر: «انها ضحكة من يطالب بالبراءة، تواطؤ. ولكن ماذا يستطيعون غير ذلك؟»

ـ حسناً، ألم يلفت نظرك أي شخص في القرية ليلة امس؟

وفكر: «بلى، ايها الغبي، سلمان».

ـ كلا.

ـ ابداً؟ أمتأكد انت؟

ـ متأكد. كان كل شيء كالعادة؟

ـ كالعادة؟ ما هي العادة؟

ـ العادة.

حين رأى سلمان في اول الليل وقف مدهوشاً، وقال له سلمان: «لا تقف كالاهبل ايها الرجل، انج بنفسك». ولكنه تقدم وصافحه، وبعد قليل سأله:

«ماذا تفعل هنا؟»» واجاب سلمان ضاحكاً، «كالعادة».

وصرخ الجندي بصوت داو؟

ـ اسألك ايها الغبي. ما هي العادة؟ كيف تبدو القرية كالعادة قل لي!

ـ لا شيء مثلها كل يوم.

ـ هناك آثار خطوات ايها الطفل.

ـ كلنا نمشي.

وصفعه، فدوت التلال القريبة بصوت اشبه بسقوط وعاء من النحاس، وقال الجندي:

ـ اذا كنت غبياً فأنت تستحق القتل. وكذلك اذا كنت ذكياً.

وراقت له الجملة، وكاد ان يمضي فيغطس داخلها ويفكر بها ويستنتج منها اموراً أهم مما تبدو لاول وهلة، ولكن الجندي قاطع ذلك التيار الذي كان دائماً يرتاح اليه، وقال بهدوء:

ـ اسمع. بعد قليل سترى كيف ينبغي ان تنسف البيوت. لا كما تفعلون انتم.. انكم لا تعرفون، الآن سنعلمكم كيف يشال البيت من اساسه باللغم، وكيف يطير ويسقط كطابة الزجاج..

وفكر: «ذلك لانكم تأخذون وقتكم. انتظروا حتى نأخذ وقتنا».

ـ عد الى مكانك.

وانفتل ـ كما تعلم في المعسكر ـ دون ان يدري لماذا، وسار، ولكنه ما ان خطا خطوتين حتى استدعاه الجندي مرة اخرى.

ـ تسير مثل العسكر؟ اين تعلمت ذلك؟

هذه اللحظة فقط أحس بالخطر، واطلقت امه من الوراء صرخة قصيرة، وفاحت رائحة غريبة اخذت تدور كإعصار صغير حوله، وانتشل نفسه، مستشعراً قوة مفاجئة تكسو جسده:

ـ مثل العسكر؟ كلا. انني اسير كذلك دائماً، لقد خلقني الله كذلك.

ـ خلقك الله كذلك؟ انت خلقك الله؟

وفكر بامتعاض: «لا. كان جواب الضابط افضل». ففي اليوم التالي لحادث القنبلة كان يقف في طابور الصباح، وكان يتعين عليهم ان يقوموا «بنزهة الصباح»، اي ان يسيروا خمسة أميال على الاقل محملين بأسلحتهم واعتدتهم، وحين بدأت أعقاب البنادق المعلقة على اكتاف

الرجال تقرع مطرات المياه المربوطة الى خصورهم مع خطواتهم الاولى صرخ الضابط: «قفوا!» فوقفوا. وقال: «انت! تعال الى هنا». وتقدم خطوتين خارج الطابور، فنظر اليه الضابط وسأله: «ألست انت رجل القنبلة؟»

- نعم يا سيدي.

- لماذا تمشي مرخياً كأنك سروال فارغ؟

- انني أمشي دائماً كذلك، لقد خلقني الله هكذا.

- لا. ان الذين ارسلهم الله الى هذا المعسكر خلقهم منذ البدء فدائيين، هل تفهم ذلك؟ لو خلقك الله مرخياً كما تبدو لما شعرت ابداً بضرورة الحضور الى هنا.. والآن، كف عن تحميله اخطائك.

- تحميل من يا سيدي؟

- الله.

وكان الجندي ما زال يكرر، نصف ضاحك:

- «انت خلقك الله؟»

واجاب بهدوء:

- نعم.

- حسناً، انني اصدقك، ولكنه خلقك لتكون صادقاً، اليس كذلك؟ اذن كن صادقاً، هيا. اين تدربت على هذه المشية؟

- الآن، ايها الجندي، منك.

- مني؟ انك رجل تفكر بسرعة. هذا لا يعجبنا كثيراً.

- نعم.

ـ نعم ماذا؟

ـ انه لا يعجبكم كثيراً . .

لقد صفا ذهنه تماماً الآن، واحس بالتوازي مع الاشياء المحيطة به، واخذ ينتظر، تاركاً الكلمات تتطاير من حوله كما يتطاير الرذاذ على مواجهة شيء مندفع بقوة الى الامام، وحين سمع أمراً بالعودة الى مكانه استدار، ثم جلس الى جانب امه التي مدت كفها فشدت على ذراعه، وهمست:

ـ الحمد لله انك بريء .

وصدمته الكلمة كمسمار. واحس بجسده ينتفض، وفي اللحظة التالية بدت له الكلمات عديمة الجدوى ولا معنى لها وانها خاضعة بعبودية لا مثيل لها للمسافات، وقال لنفسه: «ان للكلمة ذاتها معنى آخر على بعد ثلاثة امتار فقط، امام ذلك الجندي المكسو بزغب اشقر». وكان بوسعه ان يمضي في فكرته إلى مدى ابعد لو لم يسمع امه تسأله:

ـ وما الذي سيفعلونه الآن؟

ـ سينسفون البيوت.

ـ بيوتنا؟

ـ لماذا؟

ـ لأنني . . .

ـ لانك؟

ـ لانني بـريء .

وخطر له ان يضحك ولكن ذلك كان مستحيلاً، فقد كان الجندي

منصرفاً الى التحقيق مع رجل آخر، وخشي ان تبدو ضحكته تواطؤاً من نوع قمـيء ،وفجأة تذكر سلمان، كان يحمل كيساً، وهم الآن ينتقمون مما فعله. ان الامور تختلط بصورة تجعل اللغة عبثاً محضاً، فالتفت الى امه:

ـ اتذكرين سلمان؟

ـ لا.

ـ أنا أذكره ، لقد نال براءته هو الآخر.

وصمت قليلاً وفجأة شعر بأن صوته أخذ لهجة التحقيق ، كأنه يجري استكشافاً للأشياء المجهولة.

ـ لقد خبأت سلاحي ، وقلت لي أنني مجنون ، وعلي أن أذهب مع سلمان.

ـ لو فعلت هدموا بيتنا.

ونظر نحوها لحظة، وبدا له انها تنظر اليه عبر الظلمة، نادمة على الكلمة التي قالتها دون معنى، ولم يكن ثمة في رأسه اي جواب، لولا ان اتى من الافق في اللحظة التالية: شق نصل البرق صدر الظلمة، ثم دوى الرعد الوحشي كانهيار داخل صدورهم، وفوق التلة شاهدوا بيوتهم تتقوض وسط شلال من الدخان واللهب، كان ضجيج الانفجارات يتوالى فيحطم صمت الليل الراكد، واخذ يضحك مـلء صدره، وكان صوت الرعد عالياً فلم يسمع الجندي ضحكاته، ولكن امه سمعت.

شباط ـ ١٩٦٨

٩ـ حامد يكف عن سماع قصص الأعمام

انسل من بين السلكين كالقطة، وتبعه اسعد بحرص، محاولاً ان يفعل مثله تماماً، ولكني رأيت اسعد يتوقف ويتركه وحده، خيل الي انني سمعت همساً، كان أسعد يبدو شبحاً اسود يتحرك باستثارة في مكانه، واقترب حامد كثيراً، اكثر مما ينبغي لرجل مدرب مثله. ولم يكن بالوسع ايقافه، وبعد قليل غاب عنا ودوى رعد، وهرج نار تعلك شيئاً صلباً.

وعاد اسعد اولاً، ثم جاء حامد، وبدأت اسير امامهما وانا استشعر فولاذ الرشاش داخل كفي اكثر سخونة من قبل، وضربنا في الوعر المعتم بأقدام صامتة.

قال اسعد: لقد اقتربت كثيراً؛ كان يمكن للشظايا ان تقتلك.

ولم يصدر اي جواب فيما أخذ الظلام لسبب ما يشتد، ولاحظت ان حامداً يسير ورائي تماماً، يكاد يلمسني. في البدء تجاهلته، ثم قلت له:

ـ امش بعيداً عني، انسيت؟

ولكنه لم يجب، وكونت في رأسي نقطتين لتقرير لا بد من كتابته الليلة: ارتكب حامد مخالفتين فظيعتين، في البدء اقترب كثيراً من الدبابة، ثم ظل ملتصقاً بي متجاهلاً التعليمات التي تقول انه يجب ان يسير بعيداً عشرة امتار عن اقرب رجل اليه، تحسباً للمفاجآت.

ومرة اخرى قلت لحامد:

ـ ابتعد عني.

وشهدت عينيه تنظران الي صامتتين، ووقف ساكناً ورائي مباشرة يحمل سلاحه الثقيل ويلهث بصوت خافت، وحين خطوت خطا معي، محتفظاً بتلك الاشياء القليلة التي كانت تفصل بيننا.

وأخيراً وقفت ونظرت غاضباً، وقبل ان أقول شيئاً سبقني بصوت اعلى قليلاً مما ينبغي:

ـ لم اعد اسمع.

ـ ماذا؟

ولكنه لم يجب، وكونت بيني وبين نفسي الصورة كلها: حين اطلق قذيفته عن ذلك القرب افقده الدوي الراعد سمعه، هذه بديهية تعلمناها وعرفناها، فكيف غابت عن ذهنه؟

امسكت يده ووضعتها على حزامي واشرت له ان يتبعني وحين جلسنا بعد فترة لنستريح وضع كفيه على اذنيه واخذ يهز رأسه بعنف، ثم قال، يائساً بعض الشيء:

ـ ليس فدائي الليل الا الاذن، انه يرى بأذنيه.

وعاد يدخل اصبعيه في اذنيه وينقب فيهما بهوس، ونظرت اليه جالساً هناك، بيني وبين اسعد، يكاد يكون غائباً عنا معاً.

وفجأة ضحك اسعد، وأخذ يهز حامد من كتفه:

ـ لماذا اقتربت إلى ذلك الحد؟

ولم يسمع بالطبع، ولكنه ابتسم شاعراً بلا ريب بغربة مفاجئة، وقلت لاسعد:

ـ لا تضحك على المسكين. . اتركه في همه، انه يتعذب.

ـ ولكن لماذا اقترب الى ذلك الحد من الدبابة؟ كان يستطيع ان يقصفها عن بعد مئة متر، فلماذا اقترب؟

ـ لا اعرف، اسأله.

ـ ولكنه لا يسمع.

ـ إذن فسؤالك لا أهمية له.

ـ لا أهمية لسؤالي لأنه لا يسمعه؟ أي هراء!

ـ هيا بنا نمشي، انهم يتعقبوننا.

وقمنا، فيما وضع حامد اصابعه في حزامي واخذ ينظر الى الارض، مثبتاً خطواته في الحفر الصغيرة التي كانت خطواتي تحفرها.

وفي العتمة فكرت فيما يتعين علينا ان نفعل بحامد حين نصل به الى البيت، لا شك ان مشاكل كثيرة ستنبع عن هذه الحالة التي لم تكن بالحسبان، وفجأة قال لي حامد:

ـ لو رأيت كيف تقوضت كالورق، كادت ألسنة اللهب تصل الي.

ـ هل اردت ان تتأكد بنفسك؟ ألذلك اقتربت؟

ـ لقد انفجرت كلها، مثل علبة ثقاب.

ـ اكنت تشك بفعالية سلاحك؟

ـ كالورق، اخذت تحترق.

كان الحوار عبثاً، فأشرت له ان يسكت: كانت السماء قد بدأت تمطر رذاذاً، وشق الافق خط من البرق مرة او مرتين. كنت متيقناً اننا وصلنا إلى الأمان، وكان بوسعي أن آمر أسعد وحامداً بأن ينصرف كل

واحد منهما إلى بيته ، ولكنني لم أكن لأستطيع أن أتخلى عن حامد ، فقلت لأسعد : سنذهب إلى بيتي .

●

خبأنا السلاح اولاً ، ثم صعدنا معاً الى فوق. كان عمي يزورنا، فاستقبلني ببرود، وسلم على الضيفين بطرف اصابعه محاولاً ان يشعرهما بأنهما ضيوف الليل المتأخرون غير المرغوب فيهم.

ولكننا جلسنا دونما اكتراث، واحضرت زوجتي الشاي فشربناه، وقالت، كعادتها، موضحة لي ماذا يتعين علي ان اكذب:

ـ تأخرت في المقهى ، هل غلبك حامد بالطاولة كالعادة؟ ونظرت الى حامد:

ـ هل غلبته هذه المرة ايضاً؟

وابتسم حامد، ناظراً حواليه بقلق، وقال اسعد:

ـ لقد غلبتهما معاً.

ونظر عمي الينا بحذر، ثم نظر الى احذيتنا فلم يلحظ شيئاً، واخيراً قال:

ـ في هذه الايام، من الحكمة ان ينام المرء باكراً. ان يلجأ الى بيته قبل حلول الظلام.

فقال اسعد:

ـ اننا نتسلى، ماذا يفعل المرء في بيته طوال المساء؟

ـ معك حق، ولكن من الأفضل ـ اريد أن أقول من الامان ـ ان يتجنب المرء المشاكل. انتم تعرفون.

وحاولت زوجتي تغيير الموضوع الا انها اختارت هدفاً خاطئاً، فقد توجهت نحو حامد وسألته:

- كيف حال لمياء؟

ونظر حامد الى الارض، متشاغلاً بالبحث عن شيء لم يسقط من يده، ولاحظ عمي هذه الحركة، فسأله:

- اعتقد انها غير معجبة بسهرات الطاولة، في هذه الظروف أليس كذلك يا سيد حامد؟

وتدخلت:

- كل الزوجات كذلك. لا تحرجه.

- قد تخرج ذات يوم من المقهى فيلقون القبض عليك لان انفجاراً وقع في القرية المجاورة. الشياطين لن تخلصك من بين ايديهم.. ساعتئذ لن تكون أية زوجة سعيدة.

- معك حق.

- أنا أريد مصلحتكم، هذه القضايا تحتاج الى حكمة.

- صحيح.

- انتم ما زلتم صغاراً لا تعرفون كيف يجب ان تتصرفوا، ولو كنت مكانكم لمشيت.

- مشيت إلى أين؟

- الى أي مكان خارج هذا الجحيم.

- هذا موضوع آخر.

- لا. هذا هو الموضوع، وأعتقد ان السيد حامد يوافقني لانه لم يحمر

مثلما أحمر وجهك ووجه صديقك، اليس كذلك يا سيد حامد؟

ولكن حامد بالطبع، لم يسمع: كان قد اقترب كثيراً من الدبابة حين قصفها، ولم يعد يسمع.

- أليس كذلك يا سيد حامد؟

تمددت في مقعدي، وفقدت أعصابي رغم كل المحاولات الصامتة التي بذلتها، وقلت له:

- إن حامداً لا يسمعك.

- لا يسمعني؟

- لا. وهذا من حسن حظه، فقد اصيب بمرض مفاجىء في اذنيه وفر عليه الاستماع. اتعرف؟ انه الآن لا يسمع ما تقول، ولا يسمع ما يقولون، انه يسمع فقط لنفسه ولذلك فمن المستحيل بعد، ان يضيع وقته، غداً ستسمع في الراديو ان هجوماً ما شنه أشقياء مجهولون على معسكر، ولكنه هجوم فاشل لم يسبب أي ضرر. أنت وأنا وأسعد سنسمع ذلك، ولكنه هو، حامد، لن يسمعه. ذلك شيء حسن. لقد سمع صوتاً واحداً، واخيراً، وهو الصوت الوحيد الذي سيظل بذاكرته.

قال عمي، وقد نفد صبره:

- لا افهم شيئاً. هل شربتم؟ ان هذا الذي تقوله حزازير.

- اسمع يا عمي، هنالك قصة سأرويها لك أمام حامد، لأول مرة، هذه فرصتي لأرويها لأنه لن يسمعها.

كانت له أخت صبية، قبل عشرين سنة، حين سكنوا في جامع ما

لانهم فقدوكل شـيء .وكان هو مجرد طفل لا يعرف شيئاً حين اختفت اخته .

وظلت الاخت مختفية أسبوعاً واسبوعين، وكان يسمع في البيت أشياء غريبة ومروعة عنها ولكنه لم يكن يفهمها تماماً ، وذات يوم رآها في الطريق ، أنيقة أكثر مما يجب ، مع رجل مجهول . لقد تمسك بساقها ، وحاولت التخلص منه فجرته على الأسفلت خمسين متراً نزف خلالها دمه ، ولكنه لم يتركها ، وأعادها إلى البيت .

وكانت نتيجة ذلك مروعة، فقد اصيبت ساقا الصبي بالتهاب خطير فيما بعد لأنه لم يعالج من كشوط عميقة سببها ارغامه على الزحف فوق الاسفلت على طول تلك المسافة. مشدوداً الى ساقي اخته .

وهكذا لزم حامد أرض الجامع الذي صار بيتا لعشرين عائلة على الاقل.

كان ذلك منذ عشرين سنة، وكان عمر حامد آنذاك ست سنوات فقط. لقد لزم فراشه المهتـرىء فترة طويلة. واستمع طوال تلك الفترة الى قصص لا نهاية لها، قصص العجائز، والامهات، والاطفال. الخوف والذل والعويل. الحيرة والضياع. التخلي. قصص الاعمام بالذات، عن الحكمة والظروف. ظل أربع سنوات يستمع، لقد استمع كثيراً، كثيراً جداً، وكانت هناك حقيقة واحدة في كل ما استمع اليه هي ان اخته هربت من البيت. ضاعت.

قلت لك، استمع كثيراً، كثيراً جداً. كان في ذلك المكان المملوء بالذل والخيبة والسقوط مجرد اذن تستمع وتستمع الى اطنان من الكلمات والقصص والعويل لم يكن بوسعها ان تقتل ذبابة واحدة، لم يكن بوسعها ان تطمر حقيقة واحدة، هي ان اخته سقطت.

أما الآن فقد قرر حامد ان يكف عن الاستماع.

نظر عمي نحو حامد، مستشعراً حرجاً صغيراً، ولكن حامد نظر اليه بوجه صامت كالحجر، ثم نظر الي، وانا الذي اعرف: كانت اذناه مملوءتين، ما زالتا، بالدوي الذي لا يهدأ، كان العالم كله محتجباً وراء ذلك الصوت الذي لا يملأ السمع غيره.

وقلت لحامد:

ـ لا عليك، سيمر يومان او اسبوع وسيعود اليك سمعك، ولكنك لن تنسى ابداً ذلك الصوت، انه الصوت الوحيد الذي يطمر كل ما عداه ويدفنه.

وفي الشارع اخذت الاحذية الثقيلة للجنود تقرع بانتظام، وجاء صوتها مفاجئاً كأنه انصب في الغرفة من فوق، ونظرت الى عمي: كان يرتجف.

ونظرنا جميعاً الى حامد الذي اخذ ينقل بصره بيننا، مبتسماً داخل عالمه الصامت، الذي لم يكن يسمع فيه الا صوت تقوض جبل الفولاذ.

وقال عمي مضطرباً حتى قدميه:

ـ الا تسمعون؟

واجاب اسعد بهدوء:

إسأل حامد.

شباط ـ ١٩٦٨

ملاحظـة :

أم سَعْد تقول : خَيْمة
عن خَيْمة ... تفـرق !

أم سعد، المرأة التي عاشت مع اهلي في «الغبسية» سنوات لا يحصيها العد، والتي عاشت، بعد، في مخيمات التمزق سنوات لا قبل لأحد بحملها على كتفيه، ما تزال تأتي لدارنا كل يوم ثلاثاء : تنظر الى الاشياء شاعرة حتى اعماقها بحصتها فيها، تنظر الي كما لابنها، تفتح امام اذني قصة تعاستها وقصة فرحها وقصة تعبها، ولكنها ابداً لا تشكو.

انها سيدة في الاربعين، كما يبدو لي، قوية كما لا يستطيع الصخر، صبورة كما لا يطيق الصبر، تقطع ايام الاسبوع جيئة وذهاباً، تعيش عمرها عشر مرات في التعب والعمل كي تنتزع لقمتها النظيفة، ولقم اولادها.

أعرفها منذ سنوات . تشكل في مسيرة ايامي شيئاً لا غنى عنه، حين تدق باب البيت وتضع اشياءها الفقيرة في المدخل تفوح في رأسي رائحة المخيمات بتعاستها وصمودها العريق، ببؤسها وآمالها، ترتد الى لساني غصة المرارة التي علكتها حتى الدوار سنة وراء سنة.

آخر ثلاثاء جاءت كعادتها، وضعت أشياءها الفقيرة واستدارت نحوي :

ـ يا ابن عمي، اريد ان اقول لك شيئاً. لقد ذهب سعد.

ـ إلى أين ؟

ـ اليهم؟

ـ من؟

ـ الى الفدائيين

وسقط صمت متحفز فيما بيننا، وفجأة رأيتها جالسة هناك، عجوزاً قوية، اهترأ عمرها في الكدح الشقي. كانت كفاها مطويتين على حضنها، ورأيتهما هناك جافتين كقطعتي حطب، مشققتين كجذع هرم، وعبر الاخاديد التي حفرتها فيهما سنون لا تحصى من العمل الصعب، رأيت رحلتها الشقية مع سعد، مذ كان طفلاً الى ان شب رجلاً، تعهدته هاتان الكفان الصلبتان مثلما تتعهد الارض ساق العشبة الطرية، والآن انفتحتا فجأة فطار من بينهما العصفور الذي كان هناك عشرين سنة.

ـ لقد التحق بالفدائيين.

وكنت ما ازال انظر الى كفيها، منكفئين هناك كشيئين مصابين بالخيبة، تصيحان من اعماقها، تطاردان المهاجر الى الخطر والمجهول. . لماذا، يا الهي، يتعين على الامهات ان يفقدن أبناءهن ؟ لاول مرة ارى ذلك الشيء الذي يصدع القلب على مرمى كلمة واحدة مني، كأننا على مسرح اغريقي نعيش مشهداً من ذلك الحزن الذي لا يداوى.

قلت لها، محاولاً ان اضيّعها واضيّع نفسي:

ـ ماذا قال لك؟

ـ لم يقل شيئاً. ذهب فقط، وقال لي رفيقه في الصباح انه ذهب اليهم.

ـ ألم يذكر لك قبلاَ انه سيذهب؟

ـ بلى. قال لي مرتين أو ثلاث مرات انه ينوي الالتحاق بهم.

ـ ولم تصدقي آنذاك؟

ـ بلى. صدقت. أنا أعرف سعد، وقد عرفت أنه سيذهب.

ـ فلماذا اذن فوجئت؟

ـ انا؟ انا لم افاجأ. انما أعلمك بالأمر. قلت لنفسي: قد تكون ترغب في معرفة اخبار سعد.

ـ ولست حزينة أو غاضبة؟

وتحركت كفاها المطويتان في حضنها، ورأيتهما جميلتين قويتين قادرتين دائماً على ان تصنعا شيئاً، وشككت ان كانتا حقاً تنوحان، وقالت:

ـ «لا. قلت لجارتي هذا الصباح: اود لو عندي مثله عشرة. أنا متعبة يا ابن عمي. اهترأ عمري في ذلك المخيم. كل مساء اقول يا رب!. وها قد مرت عشرون سنة، واذا لم يذهب سعد، فمن سيذهب؟».

وقامت، ففاض في الغرفة مناخ من البساطة. بدت الاشياء أكثر ألفة، ورأيت فيها بيوت الغبسية مرة اخرى، ولكنني لحقت بها الى المطبخ، وهناك ضحكت وهي تنظر الي، واخبرتني.

ـ «قلت للمرأة التي جلست الى جانبي آنذاك في الباص ان ولدي أضحى مقاتلاً (بدا صوتها، بلا ريب، مختلفاً. ولذلك تذكرت) قلت لها انني احبه وسأشتاق له، ولكنه جاء ابن امه..

اتعتقد أنهم سيعطونه رشاشاً؟»

ـ انهم يعطون رجالهم رشاشات، دائماً.

- «والطعام؟»

- يأكلون كفاية، وكذلك يعطونهم السجاير.

- «ان سعد لا يدخن، ولكنني متأكدة انه سيتعلم ذلك هناك. يا نور عيني امه! اود لو كان قريباً فأحمل له كل يوم طعامه من صنع يدي».

- يأكل مثل رفاقه.

- «اسم الله عليهم جميعاً.»

وصمتت لحظة، ثم دارت وواجهتني:

- « أتعتقد أنه سينبسط لو ذهبت فزرته ؟ أستطيع أن أوفر أجرة الطريق ، وأذهب يومين إلى هناك . »

وتذكرت شيئاً، فأكملت:

- «اتدري؟ ان الاطفال ذل! لو لم يكن لدي هذان الطفلان للحقت به. لسكنت معه هناك. خيام؟ خيمة عن خيمة تفرق! لعشت معهم، طبخت لهم طعامهم، خدمتهم بعيني. ولكن الاطفال ذل.»

قلت لها:

- لا ضرورة لان تزوريه هناك، دعيه يتصرف وحده. ان الرجل الذي يلتحق بالفدائيين لا يحتاج، بعد، الى رعاية امه.

ونشفت كفيها بمريولها، وعميقاً في عينيها رأيت شيئاً يشبه الخيبة: تلك اللحظة المروعة التي تشعر فيها ام ما انه صار بالوسع الاستغناء عنها، انها اطرحت في جهة ما كشيء استهلكه الاستعمال.

ودنت مني تقول:

- «أتعتقد ذلك حقاً؟ أتعتقد أنه من غير المفيد ان أذهب الى رئيسه

هناك فأوصيه به؟»

وتحيرت قليلاً، مستشعرة التمزق ينهكها، ثم سألت:

ـ «. . ام تراك تستطيع انت أن توصي رئيسه به؟ تقول له: دير بالك على سعد، الله يخليلك ولادك»

وقلت لها:

ـ كيف؟ ان احداً لا يستطيع ان يوصي بالفدائي.

ـ « لماذا » ؟

ـ لانك انت تقصدين ان يتدبر رئيسه الأمر بحيث لا يعرضه للخطر. اما سعد نفسه، ورفاقه، فيعتقدون ان احسن توصية بهم هي ان يرسلوا على الفور الى الحرب. .

ومرة اخرى جلست هناك، ولكنها بدت قوية اكثر مما رأيتها ابداً، وراقبت في عينيها وكفيها الخشنتين حيرة الأم وتمزقها. واخيراً قررأيها:

ـ «اقول لك، لتكن توصيتك به الى رئيسه ان لا يغضبه قل له: ام سعد تستحلفك بأمك ان تحقق لسعد ما يريد. انه شاب طيب، وحين يريد شيئاً لا يتحقق يصاب بحزن كبير. قل له، دخيلك، ان يحقق له ما يريد. . يريد ان يذهب الى الحرب؟ لماذا لا يرسله؟».